
أولادنا
نبوءة المنجّم
بقلم : محمد فريد أبو حديد
دار المعارف

نبوءة المنجّم

اقرأ

٨

نبوءة المنجّم

بقلم : محمد فريد أبو حديد

الطبعة العاشرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

مالتِ الشمس للغروب فى بحر الظلمات ، وأرسلت ما بقىَ من شَعاعها الضعيف إلى شارع الفار ، الذى يصعد متعرِّجًا ضيقًا ، فوق المنحدَر الذى عليه مدينةُ لشبونة ، عاصمةُ البرتغال .

وطلع فتًى فى ذلك الشارع ، وعليه سترةٌ من قطيفة سوداءَ ؛ فرأى بائعَ سمك مقبلاً عند ركن الشارع فاتجه إليه وسأله قائلا :

— أتعرف أين بيتُ اليهوديِّ إبراهيم زكّوت ؟

فأشار السماك بيده إلى بيتٍ فى أعلى المنحدر ، ثم مضى عنه صامتًا . وكان بيت اليهوديِّ أعلى من البيوت التى حوله ؛ فسار الفتى

صاعداً إليه ، حتى إذا بلغ البيت رأى سلـّمًا حجريا ، يصعد إلى باب ضخم من خشب غليظ ، عليه قضبانٌ من الحديد ، وقد دُقّتْ مساميرُ بارزةٌ ، فوقف ينظر إليه حينًا وهو متردّد ، فإذا البابُ ينفتح فجأة ، ويخرج منه فتى فى مثل سنه ، نحيفُ الجسم ، له شعرٌ أحمر ، وعلى وجهه أماراتُ الغضب ، وكان من ورائه كلبٌ كبيرٌ أحمر اللون يتمسح بقدميه .

وسمعَ من داخل البيت صوتٌ يصيح :

ـــ اذهبْ إلى حيثُ ألقتْ . . . اذهب ولا ترجعْ إلى البيت ، وعدْ إلى بلادك التى جئتَ منها ، وإلى بِركها وطينها .

فنظر الفتى الأحمرُ الشعرِ إلى الفتى الآخر الذى أمامه ، وابتسم له ، حتى ظهرت أسنانه البيضاء ، وتجعـّد جلدُ وجهه ، ثم قال يخاطبه :

ـــ ألا تسمع ما يقول هذا الرجل ؟ . . . نعم سأعود إلى بلادى . وما أحبَّ عودتى إلى بلادى !

ثم اتجه إلى كلبه قائلاً :

ـــ هلمّ يا كمارا !

ثم همّ بالسير فناداه الفتى قائلاً :

ـــ اسمع يا أخى . إنّ معى خطابًا هامًّا ، جئتُ أحمله إلى المنجّم



اليهوديّ إبراهيم زكّوت . أليس هذا بيته ؟

فقال الفتى ذو الشعر الأحمر :

ــ هذا أمرٌ لا يعنيني ، فإن الخطابَ لغيرى ، ولست أنا اليهوديَّ المنجّم . فما أنا إلا فتى اسمى « شين » ؛ ولم يسبق لأحد أن بعث إلىّ بمثل هذا الخطاب المختوم بالشمع الأحمر .

وكان يتكلم بلسان البرتغال ، ولكنه كان بطيئًا فى النطق ، ويتكلم بلهجةٍ غريبة تنمّ على أنه غريب عن البلاد ، فسأله الفتى قائلا :

ــ وماذا عليك إذا دلَلْتني على صاحب هذا الخطاب ، أو أخذته مني فأوصلته إليه ؟

فتبسّم شين ، وقال يخاطب كلبه :

ــ هلمّ بنا يا كمارا . لقد آن لنا أن نخرج من هذا البلاد ، وننفُض ترابها عن أقدامنا .

فقال له الفتى الآخر :

ــ وهل لك بلادٌ أخرى ؟

فأجاب شين :

ــ ألم تسمع عن إيرلندة ؟

فقال الفتى :

ــ نعم سمعت عنها . إنها هناك . . .

وأشار بيده إلى جانب البحر البعيد . ثم استمرّ قائلا :

– إن أولاد البرتغال يعرفون أقصى الأرض وأدناها ، ويَسيحون فى أركان البحار كلها ، فليس يغيب عن علمهم شىءٌ من بلاد الدنيا .

فقال شين ضاحكًا :

– لعلك كنتَ مع قومك عندما ساحوا فى البحر إلى رأس العواصف ؟

فقال الفتى :

– لا ، لم أذهبْ معهم . ولكنى أعرف بعضَ من ذهب إليه . فالذى ساح إلى رأس العواصف هو بارتلميو دياز ، وهو صديق أخى . واعلمْ أيها الفتى أننا لا نسميه الآن رأس العواصف ، بل رأسَ الرجاء الصالح .

فقال شين ساخراً :

– وما الذى منعك من الذهاب معه يا أخى ؟

فأجاب الفتى :

– إننى أنتظر أن تسنح لى فرصة ، فأذهب ضارباً فى الآفاق . أما سمعت عن كولمبس ؟ إنه قد بلغ الباب الخلفىّ لبلاد الهند ، وأما نحن فسوف نذهب إلى الباب الكبير نفسه.

فقال شين ، وهو لا يزال ساخراً :

— لقد أخطأ كولمبس لأنه لم يأخذْك معه .

فأجاب الفتى جادًّا :

— نعم أخطأ ، لأنه ذهب مع الإسبان ولم يذهب معنا .

فقال شين ضاحكًا :

— إنى لو رأيته لنصحته ألاّ يسافر إلاّ مع أبناء إيرلندة . ألا تعرف بلادى الجميلة ذات المروج الخضراء ؟

فقال الفتى :

— وإذا كانت أرضُك جميلةً ، ذات مروجٍ خضراءَ فلماذا تركتها ؟

فقال شين ضاحكًا :

— خرجنا منها نسير فى الأرض ، لعلنا نرى أرضًا أجملَ منها وأحبَّ إلى نفوسنا ، ولكننا — بعد أن طُفنا بالبلاد — زاد حُبّنا لها .

فقال الفتى يردّ على ضحكه :

— لعلك إذا رأيت الهند فضلتها عليها .

فأجاب شين :

— وماذا نفعل بالهند ، وهى بلاد الظلام والثعابين ؟

فقال الفتى :

— بل هى أرضُ الجواهرِ والبَهار والحرير ، وفيها الذهب والعاج والعطور .

فقال شين :

– إذا كانت كذلك فهى بلادٌ بديعةٌ ، ولعل الحظ يحملنى إليها يومًا .

ثم نظر إلى كلبه قائلا :

– هلمّ بنا يا كمارا .

وسُمع عند ذلك صوتُ فتاةٍ تنادى من وراء الباب ، فأسرع شين إلى ركن الباب فاختبأ وراءه .

وخرجت الفتاة تجرى من الباب ، فرأت أمامها الفتى الآخر فقالت له :

– ألم ترَ شين ؟ ألا تقدر أن تجرى وراءه لتردّه إلى هنا ؟ إن أبى آسفٌ عليه ، ولم يقصد أن يطرده . وهو يعرف أنه لم يقصد إسقاط الأسطرلاب[1] ، ولم يتعمَّدْ تكسيره . فهو ولدٌ طيبٌ ، وإن كانت يدُه لا تحمل شيئًا إلا كسرته .

فخرج شين من وراء الركن قائلا :

– أشكركِ يا راشيل .

ثم نظر إلى الفتى قائلاً :

– هذه راشيل ابنة السيِّد زكوت . أعطِها الخطابَ إذا شئت ، فإنى ذاهب .

---

(١) جهاز استعمله المتقدمون فى معرفة الوقت وتحديد أبعاد النجوم وحركاتها .

وكانت الفتاةُ صغيرةً ، لا تزيد سنها على الثالثة عشرة . وكان في يدها فانوسٌ من زجاجٍ أحمرَ وأصفرَ، يلقي ألوانًا مختلفةً على ثوبها الأبيض . فرفعت فانوسها إلى وجه شين ، فوقع شعاعٌ من نوره على وجهها ، فظهرت عليه آثارُ دموعِها .

وقالت تخاطب شين :

— أهكذا تريد أن تفارقنا ؟

فصاح الفتى الآخر :

— إنه لن يفارقَك ؛ وسأمنعه أنا من الذهاب . وأخذَ بذراع شين ليمنعَه من السير . وما كاد يفعل ذلك حتى أحسّ شيئًا من ورائه يدفعه ويُلقيه على الأرض ويُزمزم بصوت مخيف . فصاحت راشيل :

— اسكت يا كمارا . امشِ !

وأسرع شين إلى كلبه فحجزه عن الفتى . ونهض الفتى ينفُض التراب عن ثيابه صائحًا :

— خطاب الملك ! أين خطاب الملك ؟

فأسنده شين حتى قام ، وقال له :

— لا تؤاخذْني . لقد حسب كمارا أنك تريد أن تؤذيَني .

ثم أخذ الفتى يبحث عن الخطاب، وأقبل شين وراشيل يساعدانه على بحثه .

وظهر عند ذلك من الباب رجلٌ قصيرٌ سمينٌ ، يلبس ثوبًا أسود مطرّزاً بنجوم مذهبة ، وعلى رأسه غطاء رأس طويل أسود .

وصاح شين عند ذلك : هذا هو الخطاب .

فأسرع الفتى نحوه ليأخذَ الخطاب منه ، فرأى الرجل أمامه فى زيه العجيب ، فوقف يتأمله . فقال له شين :

— هذا هو السيد زكوت ، فأعطهِ خطابه .

فقال السيد زكوت :

— ما هذه الزّيطة ؟

وكانت فى يده أوراقٌ وأدواتٌ مختلفةٌ من النحاس الأصفر . وجعل ينظر حوله فى نور الشمعة ، فلما رأى أمامه الفتى الآخر قال له :

— هل أنتَ صديقُه ؟ هل أنت صديقُ شين ؟

فصاح شين :

— نعم هو صديقٌ قديمٌ . عرفتهُ منذ عشرِ دقائقَ . وهو يحمل إليك خطابًا .

فقال زكوت :

— ومن ذا الذى يكتب إلىّ خطابًا فى مثل هذا الليل ؟

فقالت راشيل :

ــ ألا تأخذ الخطاب لترى من أرسله ؟

فقال زكوت ضاحكًا :

ــ فتاة ذكيَّة والله !

ونظر إلى شين قائلا :

ــ أليس كذلك يا شين ؟

فقال شين :

ــ هى بلا شكّ ذكية .

وأخذ السيد زكوت يفتح الخطاب . وما كادت عيناه تقعان على ما فيه حتى أخذ يرقصُ صاعداً نازلاً على درَج السلم . ورفع يده بالآلات النحاسية إلى فوق رأسه ، وأخذ يهزّ جسمه . وكان ثوبُه الأسودُ الواسع يخفق من حوله . ثم تحمَّس فى الرقص حتى سقط غطاء رأسه ، فكشف رأسه الأصلع . وتقدّم إلى شين وهو ينهَج ؛ وربَّت بيده على ظهره ، ثم عانق ابنته قائلا :

ــ ألم أقلْ لكم إنّ الحظّ سوف يبتسم لى ؟ إنك فتًى طيبٌ يا شين ؛ اذهب فأحضر لى أدواتى . وهاتى لى خرائطى يا راشيل . هاتوا لى جُبّتى السوداء ذات البُرنُس ، فإنى أحبّ أن أخفىَ وجهى حتى لا يرانى الناس .

فأسرعت راشيل إلى الدار لتحضرَ لأبيها ثيابه وحقيبةَ أدواته ؛

١

فلما عادتْ وجدته ما زال يرقص ويصيح !

فقالت له :

ــ ألا تخفض صوتك ، حتى لا يسمعك جيراننا ؟

فأجابها بصوت يُسمع من أقصى الطريق :

ــ صدقتِ يا حبيبتى ، فما ينبغى أن يَسمع الناس صوتى . ألم أقلْ إنك فتاةٌ بارعةٌ .

والتفت إلى الفتى الغريب فسأله :

ــ أليست ــ كما أصفها ــ فتاةً بارعةً ؟ ما اسمُك أيها السيد الصغير ؟

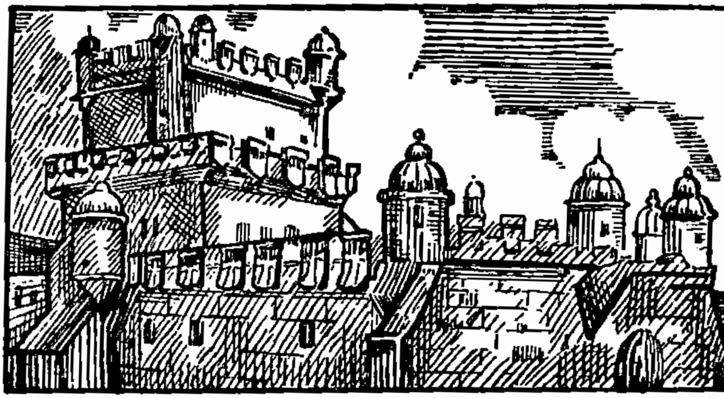
فقال الفتى :

ــ جوان كويليو .

فقال زكوت :

ــ اذهبى يا راشيل إلى أمك ، فقولى لها إننى ذاهب ، وقد أتأخر فى العودة . هلمّ يا شين ، فاحملْ هذه الحقيبة عنى ، فليس يليق بمثلى أن يحمل الحقائب . سوف أصبحُ المنجمَ الأولَ للملك . سوف أصير منجمَ الملك .

ولفّ نفسه فى جُبّته ، واندفع يسير فى شارع الفار ، والفتى شين من ورائه يحمل الحقيبة وجوان كويليو يسير فى أثرهما .



٢

دخل زكوت إلى قصر الملك، والفتـيان يسيران عن يمينه وشماله ، كأنهما مئذنتان بينهما قبة، وسار الكلب وراءهم يجرّ ذيله ، وصاروا يدخلون من دهليز إلى آخر ، بين مشاعلَ من الحديد تدخّن على الجانبين ، وبين جنودٍ تحمل السلاح وتحرس المداخل . ثم بلغوا بابًا صغيراً يحيط به عريشٌ من الشجر ، ففتح جوان الباب بمفتاح فى خيط معلق فى عُنقه ، وسار يتبعه أصحابه ، حتى صعِدوا فى سلم ضيق مظلم كالحلزون ، ثم ساروا فى دهاليزَ ضيقة ، حتى بلغوا موضعًا عليه ستارة من الجلد ، فأزاحها جوان ودخل بمن معه فى غرفة

كبيرة ، فيها شمع يدخن ويضيء بنور ضئيل . وكانت الظلال تتراقص على الحيطان من حولهم ، حتى بلغوا ستارة أخرى من الحرير الأحمر . عليها نقش علم البرتغال . فرفعها جوان ، ونقر على الباب الذى وراءها ، فسُمع صوتٌ من وراء الباب ينادى :

— من هذا ؟

فقال جوان :

— هذا هو المنجم زكوت يا صاحب الجلالة .

ففُتح الباب . وأطلّ منه الملك منويل ؛ وكان شين قد رآه من قبلُ فى موكبه الفخم ، فى شوارع لشبونة ؛ فلما وقعت عينه عليه عند ذلك قال فى نفسه :

— أهذا هو الملك ؟

وانحنى زكوت حتى لمس رأسه الأرض ، وانحنى الفتى شين كذلك ، حتى قرب رأسه من البلاط ، وانتهز تلك الفرصة فتأمل قدمَى الملك وهما عاريتان فى خُفٍّ من القطيفة ، ورأى ساقيْه نحيلتين كأنهما عَصَوان ، يتدلى عليهما طرف ثوبه . وكان يلبس ثوباً يحيط به إطار من فرو أكلته العُثة . وقال الملك وهو يتثاءب .

— لا بأس ! لا بأس ! قوموا ، ارفعوا رؤوسكم .

ورفع شين رأسه ، وتأمل الملك متعجباً من ثوبه المعثوث ، وفمه

المفتوح ، وأنفه القصير المرفوع ، وجبهته البا زة ، وشعره المنفوش القليل . وسأل الملك :

— وما هذا الكلب الذى معكم ؟ أهو منجم مثلكم ؟

قال هذا وهو يمسح على رأس كمارا ملاعباً . وتقدّم إليه الكلب يهزّ ذيله فهمس له شين قائلا :

— اقعد يا كمارا .

وكان يخشى أن يجرؤ الكلب على الملك ، فيداعبه بمخالبه مداعبةً ثقيلةً . فقعد الكلب ومدّد رجليه من أمام ، كأنه تمثالٌ من النحاس ، وجعل ينظر إلى وجه الملك بعينيه الحمراوين .

فقال الملك :

— لم أرَ هذا الصنف من الكلاب من قبل . فمن أين هو ؟

فقال شين :

— هو من إيرلندة يا مولاى . هكذا تقعدُ الكلاب فى بلادنا إذا رأت صيداً .

فقال الملك ضاحكاً :

— وماذا تفعل هنا أنت وكلبك أيها الفتى ؟ ماذا جاء بك من إيرلندة ؟

فقال شين :



— كان أجدادى ملوكًا فى إيرلندة يا مولاى ، وكنا نعيش فى إقليم كنارا ، واسم أسرتى « أوكنور » . ولكنّ قومًا من الأجانب جاءوا إلى بلادنا — وهم السكسون — فهزمونا وشرّدونا فلم نعدْ ملوكًا . فخرجت أنا وأخى « دنيس » ، وكلبى هذا ، نبحث عن حظنا فى الأرض . أما أخى فهو قارئٌ كاتب ، له قلم بليغ ، وهو فوق ذلك رسّام بارع .

فقال الملك :

— إذن فقد مات أبوك الملك ؟ مَن هو فإنى لا أعرفه ؟

فقال شين :

— لم يكن أبى ملكًا يا مولاى . بل كان المُلك فى أجدادى منذُ أزمان . كان ذلك منذ ثلثمائة عام ، أو نحو ذلك .

فضحك الملك قائلاً :

— إنى آسف إذ ضاعتْ منك مملكتك أيها الأخ . ومع ذلك فقد أصبحتَ منجمًا . أليس كذلك ؟

فقال شين :

— لى الشرف يا مولاى أن أكون تلميذَ السيد زكوت .

وأشار بيده إلى أستاذه . وكان زكوت واقفًا فى هذه المدة يتحرك قلقًا ؛ يرتكن على رجله اليمنى مرةً ، وعلى رجله اليسرى مرةً أخرى .

فلما سمع قول شين رفع قامته وانتفخ . وقال الملك :

— سوف نستمع الآن إلى حكمة أستاذك . اسمعا أيها الفتَيان : سنترككما هنا قليلا ، فلا تُدخلا علينا أحداً .

ودخل الملك مع زكوت إلى غرفة مجاورة ، وأغلقا الباب وراءهما . وجلس الفتَيان يتحادثان حتّى فتح الباب مرة أخرى ، وظهر منه الملك يكلم زكوت قائلا :

— عُدْ إلينا مرة أخرى إذا حسَبْت حسابك ، وعرفت ما تقوله النجوم لك . لا تتسرّع ، ودقق فى حسابك ، حتّى تقدِر أن تتنبأ لى بطالع هذه الرحلة . أهو طالع سعيدٌ فأبعثَ إليها رجالى . أم هو طالع نحس فأمتنع من إرسالها ؟ !

وأخذ زكوت ينطق ببعض كلمات من أسماء بروج السماء ، وأعطى الفتى شين الخرائط التى كانت معه ليحملها ، ثم شكر الملك ، ودعا له بالخير والسعادة ، وانصرف منتفخًا . وسار وراءه شين حتّى خرجا من القصر إلى الظلام .

ولما وصل زكوت إلى بيته ، ودخل إلى غرفته ، نظر إلى شين قائلا :

— لقد كنت فتًى مباركًا ، فقد سُرّ الملك منك ومن كلبك . وعلينا أن نعود إليه بنبوءة حسنة ينشرح صدرُه لها . علينا أن نختار له أحسن نبوءةٍ عندنا .

وجعل يسير فى الغرفة غارقًا فى تفكيره ، يصفّر بشفتيه ، واضعًا يديه وراء ظهره . وبعد قليلٍ التفت فجأة إلى شين قائلاً :

ـ هما التوأمان يا شين . فى هذه الليلة تخرج الشمس من برج الثور وتدخل فى برج التوأمين . ألا تعرف التَّوأمين ؟ ألا تعرف برج الجوزاء أيها الغبىّ ؟

فقال شين :

ـ لست أفهم يا سيدى .

فوقف زكوت على كرسىّ خشبىّ صغير ، وأشار بأصبعه إلى شين قائلاً :

ـ يمكن أن أغتفر لك أنك فتًى أحمق ، لا تقدر على حمل الأسطرلاب ، فتسقطه من بين يديك ، ولكنى لن أغفر لك جهلك ، وقد قضيتَ عندى كلّ هذه الأشهر . ألا تفهم إلى الآن شيئًا ؟ ألم أقل لك ألف مرة كيف تكون منجمًا بارعًا ؟

فقال شين مسرعًا :

ـ أما هذا فإنى أعرفه . أعرف أنه يجب علىّ أن أكون لبقًا ، واسع الخيال ، محتالاً .

فقال زكوت :

ـ عظيم ! فإذا أتت إليك سيدةٌ مثلاً لتسألك دواءً لشعرها الذى

يتساقط ، فماذا تقول لها ؟

فقال شين :

— أصِف لها دواءً من رماد فأرٍ محروق وسنّ حصان ، وشيئًا من دهن الخنزير تخلط ذلك كله بالعسل . . .

فقاطعه زكوت :

— حسن جدًّا ، واسم هذا مرهم كليوبترة . . . أليس كذلك ؟ هكذا يكون الخيال الواسع .

فقال شين :

— وهل يحتاج الملك إلى مرهم كليوبترة ؟

فصاح زكوت :

— لا ، لم أقصد ذلك . ولكنى أضرب لك مثلاً . اسمع ، هذا ملك البرتغال يريد أن يبعث جماعة لكشف طريق الهند . ويريد ملك الإسبان كذلك أن يبعث جماعة من قومه ، ليكشفوا له تلك الطريق . وقد كان الأمير « هنرى » من قبل رجلاً ذكيًّا ، فأراد أن يكشف طريق الهند ، فبعث سفنه إلى سواحل أفريقية . وقد ذهبتُ معه عندما كنت شابًّا ، حتى بلغنا مدينة سبتة . وكنا نرصُد النجوم معًا ، ونرصد سير الرياح . أتعرف ما هو الشيء الأول الذى يهمّ فى سفر البحار ؟

فقال شين :

ـ نعم ، هو الرياح . لا بل هو الصّارى . فلا بدّ أن يكون متينًا . والقلوع ، لا بدّ أن تكون قوية . ثم السفينة ، ولا بدّ أن تكون سليمة غير مخروقة .

فقال زكوت :

ـ هذا كله حسن . ولكن أهمّ من كل ذلك أن يكون للسفينة ربّان ماهر شجاع . فإذا كان الربّان ماهراً شجاعًا فلا بأس على السفينة ، وإن كانت مخروقة . ولا ضررَ من الرياح ، وإن هبت عاصفة . فالربّان الماهر يعود بسفينته سليمة إلى البرّ دائمًا . هذا كان رأى الأمير هنرى ، وقد كان رأيًا حكيمًا . وهذا هو السرّ فى نجاحه .

فقال شين :

ـ ولكن هنرى قد مات . فهل ضاع الأمل فى النجاح ؟

فأجاب زكوت :

ـ لا ، بل قد استمرّ بعده الملك « جوان » الثانى . فبعث ربانًا عظيمًا اسمه « بارتلميو دياز » ، حتى بلغ طرَف أفريقية ودار حول الرأس الذى هناك ، وسماه رأس العواصف ، لأن العواصف كانت تهبّ عليه هائلة. ولكنه سمّاه فيما بعد رأسَ الرجاء الصالح ، لأنه

كان بشيراً بقرب الوصول إلى الهند .

وأما هذا الملك منويل ، وأما هذا الجلدة على العظمة ، فهو يطيع من حوله إذ يقولون له : « لا تخاطرْ بأموالك وسفنك ورجالك » . ولهذا ترك الإسبانَ يبعثون سفنهم حتى بلغتْ أطراف الهند مع كولمبس .

ووقف زكوت عند ذلك ليأخذَ نفسه . ثم تكلم في حماسة فقال :

— إن هذا الملك يريد أنْ يملك الهندَ بغير أن يبذُل ثمنها غالياً . يريد أن يتزوّج ابنة ملك الإسبان ليرثَ الهند من وراء زواجها . فما رأيك يا شين في هذا ؟

فقال شين :

— لم أر من قبل فأراً يأكل قطاً .

فضحك زكوت قائلاً :

— أما قلتُ لك إنك ذكيّ ؟

ثم خبط على ظهر الفتى مداعباً ، واستمر يقول :

— بل هي إسبانيا التي سوف تأكل البرتغال ، يا ولدي . ولكن لا قدّر الله! إنهم إذا أتوْا إلى هنا أخذونا نحن اليهود وحرّقونا وعذّبونا . فمن المصلحة أن يرسل الملك منويل سفنه إلى الهند ، حتى لا تكون له حاجةٌ إلى إسبانيا. لا بدّ أن تذهب سفن البرتغال إلى الهند لتعودَ حاملة أثمن التوابل إلى لشبونة ، بدلاً من ذهابها إلى البندقية . فإذا

تمّ ذلك أصبحتْ هذه الأرضُ أغنى البلاد ، وسيكون اسم ملكها منويل السعيد .

فلا بدّ يا شين من أن نذهب إلى الملك بنبوءة تبعث الشجاعة إلى قلبه ، وتحمله على إرسال سفنه إلى الهند .

فقال شين وهو يتثاءب :

— لا بدّ ! لا بدّ ! ولكنى لا أدرى كيف يكون هذا .

فصاح زكوت :

— هو الخيال الواسع يا شين . ألم تسمعنى أقول إننا دخلنا فى برج الجوزاء ؟ أليس هو برج التوأمين ؟ إن هذا يدلّ على بشارة صريحة ؛ فإذا اختار الملك أخوين شقيقين ، لقيادة السفن إلى الهند، كان فى ذلك انتصاره ونجاحه .

فقال شين :

— ومن هما هذان الأخوان ؟ هلمّ إلى الملك فقل له اسميهما .

فقال زكوت :

— ما أحمقك أيها الفتى ! أتحسب أنه من الحكمة أن أقول للملك اسميهما ؟ لا ، بل أترك ذلك له فهو الذى يجب أن يبحث عنهما ، وهو الذى يجب أن يختارهما . سأجعله يسمع وحْى النجوم ، ويحسب أنه هو الذى اهتدى إليهما .

فقال شين :

ـ إذن ، فقل لى أنا من هما ؟

فمال زكوت إلى الفتى ، وقال هامساً :

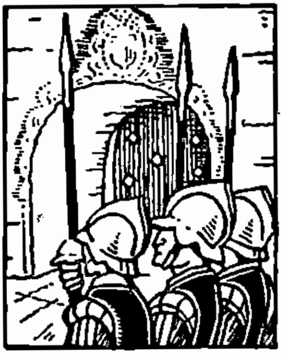
ـ هما « ڤاسكو دا جاما » وأخوه « پاولو » .

ثم نظر إلى الفتى قائلا :

ـ ما لك تفتحُ لى عينيك وفمك هكذا ؟ ألم تسمع ما قلت ؟

فقال الفتى :

ـ نعم سمعت . ولكن أين تجد پاولو دا جاما ؟ لقد اختفى فلا يعرف أحد مكانه .





٣

كان دنيس أخو شين كاتبًا عند پاولو دا جاما ، يترجم له كتبَ الرحلات ، من لغات كثيرة يجيد معرفتها . وكان فوق هذا ماهراً فى الغناء ، يُحسن الضَّربَ على العود ، ثم كان مصوراً بارعاً ينقش الكتب بماء الذهب والألوان البديعة ، حتى تصير كلّ صفحة منها كأنها البستان حسنًا ، أو كأنها حسناء تلبس عقداً من الجوهر . وقد تعلم شين منه الرسم ، فكان يرسم للمنجم زكوت خرائطه . وكان پاولو دا جاما يقيم فى مدينة « ستبول » ، وكان قاضى المدينة عدوًّا شديداً له .

واتفق فى يوم من الأيام أن كان پاولو راكبًا فى إحدى طرق المدينة ، ومن ورائه كاتبه دنيس وأخوه شين . وجاء قاضى المدينة من آخر الطريق راكبًا فى موكب عظيم من خَدَمه وأتباعه .

فزحم فرس القاضى فرس پاولو دا جاما ، وأدّى ذلك إلى معركة ؛ فجرّد القاضى سيفه ، وجرّد پاولو سيفه ، فتبارزا ، حتى ضرب پاولو سيف القاضى فطيّره من يده ، وجرحه جرحًا خفيفًا . وكان يستطيع أن يقتله عند ذلك ، ولكنه لم يفعل ؛ ثم لوى عنان فرسه ، وفرّ هاربًا إلى لشبونة . وذهب القاضى إلى السجن ، فصاح بحراسه وأمرهم أن يقبضوا على پاولو وأصحابه ، فخرجوا مسرعين حتى أحاطوا بالأتباع ، فلم ينجُ منهم إلا شين . وأما دنيس فقد ساقوه إلى السجن مع أصحابه ، وانطلقوا فى إثر پاولو يريدون القبض عليه ، ولكنه فاتهم فلم يصلوا إليه . وأخذوا يبحثون عنه ، فاختفى عنهم ، ولم يستطيعوا أن يهتدوا إليه .

ومنذُ ذلك اليوم لم يقعْ نظر شين على پاولو دا جاما حتى سمع المنجم زكوت يذكر اسمه ، فكانت دهشتُه عظيمةً ، وقال له :

— وأين تجد پاولو دا جاما ؟

قال زكوت :

— ما لك تفتح فمك هكذا ؟! اذهب ونمْ ، وأقفل هذا الفمّ

قبل أن تنام ، حتى لا يدخل فيه فأر !

ثم أخذ الشمعة فى يده وهمّ بأن يسير ، فقال شين :

— انتظر من فضلك . هل تعرف پاولو دا جاما ؟

فقال زكوت :

— بغير شكّ . وإلا فكيف كنت أعرفك أنت ؟

فقال شين :

— كنت أحسب أنك عرفتنى عندما رأيتنى أول مرة وأنا أرسم لوحة على شاطىء نهر التاج ، فأخذتنى لأرسم لك خرائطك .

فقال زكوت :

— بل هو أرسل إلىّ خطابًا يطلب منى أن أبحث عنك وآخذك إلى بيتى . ثم بعث إلىّ مالاً لأوصله إلى أخيك دنيس فى السجن . نعم أعرف پاولو ، وأعرف أين هو الآن . اذهب فنم .

فقام شين إلى حشيّة ففرشها على الأرض ، بين قدور العقاقير ، وأخذ فروة تغطى بها ، وذهب كلبهُ عند قدميه فنام . ولكن الأفكار تواردت عليه فمنعت عنه النوم ، فقضى زمنًا طويلاً ينظر إلى السماء من النافذة ويتأمل النجوم . ثم لم يشعر بشىء حتى أحسّ شعاع الشمس فى الصباح .

وقضى شين ثلاثةَ أيام يرسم الخرائط التى أرادها زكوت ، وكان

بعضها يبين مواقع النجوم ، وبعضها يبين ساحل أفريقية . وقد أراد بذلك أن يظهر للملك منويل أن الطريق من لشبونة إلى الهند أقصرُ مما بين الهند والبندقية ، وأنه أسهل منه وأقلّ نفقةً ، فنقلُ البضاعة فى البحر من الهند إلى البرتغال لا يحتاج إلى تفريغ السفن فى مصر ، ثم إرسال بضاعتها فى البر حتى تصل إلى ساحل الروم ، لترسل مرةً أخرى إلى البندقية .

ولما فرغ شين من الرسم قال لزكوت :

— أرى بالخرائط فراغًا كبيراً . ألا ترى أن أرسم فى هذا الفراغ أشكالَ بعضِ العفاريت والوحوش ؟

فصاح زكوت :

— أتريد أن تخوّف الملك أيها الأحمق ؟ ارسم هنا بعض السفن ، وارسم هناك صورة وجوهٍ حسان ، وارسم معها أزهاراً وأشجاراً ؛ فلعلّ ذلك يجعل الملك يتشجع على إرسال سفنه إلى رحلتها . ثم ارسم فى البحر حول أفريقية أسماكاً لها ذيول من الذهب ، وارسم على الأرض فيلَة وزنوجًا من السود ، يلبسون ثيابًا من الذهب عليها الجواهر واللآلئ .

فأخذ شين يزخرف الخرائط بأنواع النقوش ؛ ولم يبخل عليه زكوت بالألوان على غير عادته ، حتى إنه كان يحرّض الفتى على الإسراف فى ماء الذهب ، قائلا :

— إننا لا نرسم الخرائط للملوك فى كلّ يوم ياشين .

ولما فرغ شين من رسمه فرح زكوت فرحًا عظيمًا ، وأخذ يشكره ويُمَنّيه الأمانى . وبينما هوكذلك أتت راشيل ابنته قائلةً :

— إن الفتى جوان كويليو ينتظر عند الباب . وهو يقول لك إن الملك يدعوك أنت وشين .

ثم وضعت على المنضدة صُرّةً فيها ثياب .

فقال لها زكوت :

— وما هذه الثياب ؟

فقالت الفتاة :

— هى ثيابُ شين الجديدة .

فصاح شين :

— ليس لى ثيابٌ جديدة .

فقال زكوت ضاحكًا :

— بل قم فالبسها يا شين . البسها ولا تشكرنى ، فإنى لم آتِ لك بها إلا لأنك ذاهب معى إلى الملك . وقد صنعها لك أخى صمويل بأجر زهيد . وأما القطيفة فقد وهبها لك ابن عمى إسحق . ألا تذكر يوم تنبأتَ لابنته بأن سفينة سوف تأتى حاملة شابًّا جميلا أسود الشعر ، وأن هناك عرسًا قريبًا ؟ لقد أتت السفينة حقًّا ، وكان عليها العروس .

وهذه القطيفة هدية منه على نبوءتك . قم فالبس ثيابك ، فإن الملك ينتظر .

فقام شين ولبس الثياب وخيل إليه أن لشبونة كلها تنظر إليه معجبةً بأكمامه المذهبة ، وسراويله المحبوكة حول ركبتيه ، وقلنسوته التى تغطى شعره الأحمر . وأخذ الكلب يشم ثياب سيده وخُفَّيْه الحديدين ، ويهزُّ ذيله سروراً .

ولما ذهبا إلى حضرة الملك قدم زكوت الخرائط ونشرها ؛ فجاء الملك ووقف ينظر فيها باهتمام . وأما شين فقد جعل ينظر حوله ، فرأى مكتب الملك ، وكان فى غرفة صغيرة لها ستائرُ جربانة . وفيها بساط صغير قذر لا يغطى إلا بعض بلاطها ، وعلى جدرانها خرائطُ معلقةٌ فى غير نظام . وكانت هناك مائدةٌ عليها أوراق من فوقها أطباق من الفضة ، فيها بقيةٌ من طعام ولحم وعظام ، وكأس فيها شىء من النبيذ . وقال الملك وهو يتأمل الخرائط :

— لقد سبقتكم إلى الطعام لأنكم أبطأتم علىّ .

ثم رمى قطعةَ عظم إلى الكلب قائلا له :

— أما أنت فهذه نصيبك .

ولما فرَغ من النظر فى الخرائط ، رفع رأسه إلى زكوت قائلا :

— وماذا قالت لك النجوم يا زكوت ؟

فقال المنجم فى هدوء وجد :

– لقد أطلتُ التأمل فيها يا مولاى . وسمعتها تتحدث . وهى تقول إن الهند بعيدة ، وإنها أرض مظلمة أهلها عُتاة ؛ ودونها أخطار وأهوال . دونها البحرُ الهائج والعواصف الشديدة ، ودونها أوبئة الأمراض وقتال الأعداء . سيقف الناس لرجالك يحاربونهم فى كل مكان . ولكن نجمك عالٍ أيها الملك ، وسوف تحكم تلك الأرض ويصير اسمك « منويل السعيد » .

فطقطق الملك أصابعه النحيلة البيضاء ، واستمر زكوت قائلاً :

– هناك الغنى والمجد . هناك الحظ الباسم . والملك الواسع . ولكن النجوم يا مولاى تدور فى السماء ، ولا تنتظر فى مكان . فاغتنم فرصة السعد لأن الشمس فى برج الجوزاء .

وسكت زكوت لحظة ثم قال :

– وللنجوم كلام آخر يا مولاى . . .

فقال الملك فى لهفة :

– تكلم أيها الرجل ، قل كل ما عندك ، ماذا تقول النجوم ؟

فقال زكوت :

– إنها تقول هذا : تقول إن النجاح يتوقفُ على الرجل الذى تختاره للقيادة . يجب أن يكون شجاعاً كالأسد ، صبوراً كالثور ،

قويا كالعجل ، حكيمًا كالحية . ويجب أن يكون له أصحاب أوفياء ، وأن يكون له أخٌ يشدّ أزره . هذه هى دلالة النجوم — برج الجوزاء — برج التوأمين .

فقال الملك فى قلق :

— وكيف لى أن أجدَ هذين الأخوين ؟ إننى إذن كالذى يبحث عن جوهرتين أختين ألقى بهما أحد الناس فى بحر فسيح .

فقال زكوت :

— صدقت يا مولاى ، فهذا من أصعب الأمور . ولكن الحظ إذا تبسم أتى بالعجب العجاب . فأنت يا مولاى إذا رأيت الرجل الموعود ، الذى يصلح لقيادة هذه الرحلة ، فسوف تعرفه متى وقعتْ عليه عيناك .

فقال الملك مفكراً :

— كيف أجد مثل هذا الرجل يا زكوت ؟ هل أجده بين هؤلاء الذين أراهم فى بلاطى يملأون المجالس بالتهويل فى ذكر أخطار البحار وعواصفها ؟ أأجده بين هؤلاء الذين يطيلون الحديث عما فى البحر من عفاريت ومن جان ، ومن دوامات تفور وتغطى ، وتبلع السفن فى جوفها ؟ ومن مياه من الزفت تلزق السفن فوق سطحها ؟ أتحسب أننى أجد بين هؤلاء أحداً يصلح للقيادة ؟ أتحسب أننى أجد

فيهم واحداً له شجاعة الأسود ، وحكمة الحية ، وغير ذلك مما تصفه ؟ إننى لن أجدَ فيهم إلا من له حكمة الحمار وشجاعة الأرنب !

فضحك زكوت ضحكةً طويلة ، وضحك الملك كذلك ثم قال :

— أظنك يا زكوت ، بما لك من حكمة وعقل ، تقدر على أن تجد لى هذه الجوهرة التى وصفتها . لا ، بل هما جوهرتان أختان . ألم تقل إنه لا بدَّ أن يكون له أخ يشدّ أزْره ؟

فقال زكوت :

— إن النجوم لم تنطق لى باسمهما يا مولاى . ولكنك سوف تراهما ، وسوف تعرفهما .

وطُرق الباب فى تلك اللحظة ، ودخل الحاجب فقال للملك :

— إن الأمراء والوزراء فى الانتظار يا مولاى .

فقال الملك يخاطب زكوت :

— تعال معى حتى ترى كيف تصفَرّ وجوههم من الخوف ، إذا قلت لهم إنى عزمت على إرسال بعثة إلى بحار الهند . تعال معى لعلك تجد فيهم واحداً تجرى فى عروقه دماء الحياة لا ألبان النعاج !

ولما ذهب الملك إلى قاعة العرش ، كان هناك جمع عظيم من رجال فى أبهى الثياب . وسار الملك بينهم حتى بلغ مكان العرش ،

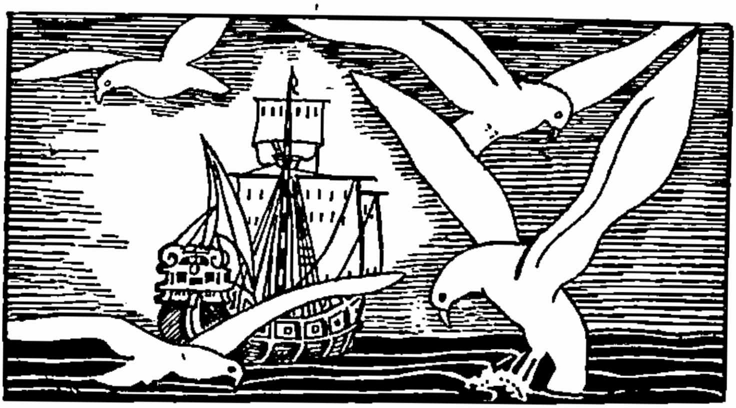
وأتى إليه الكاتب بأوراق ، فأخذ ريشة وجعل يوقع باسمه عليها .

ووقف زكوت وشين فى ركن قريب من الباب ، ولم يلتفت أحد إليهما ، إذ كانت الأنظار كلها متجهة إلى الملك ترقب حركته ، اللهمّ إلا واحداً كان واقفًا عند نافذة ينظر منها ، وكان رجلاً أسمر اللون ، له أنفٌ أقنى كمنقار النسر ، وعينان سوداوان واسعتان ، ولحية سوداء غزيرة الشعر ، وعلى هيئته تلوح الكبرياء .

فسار زكوت نحو النافذة وهمس للرجل قائلا :

— إنّ الملك لن يراك إذا بقيتَ هنا ، جاعلاً ظهرك إليه . فاقترب منه ، وأظهر له وجهك يا سيد ڤاسكو دا جاما .





٤

سمع ڤاسكو دا جاما قول زكوت فهز كتفيه وأجاب :

– لست من هذه الطواويس التى تراها هناك تنفش ريشها معجبةً بأنفسها . بل إنى نادم على أن جئت معهم إلى هنا .

فقال زكوت :

– قد أكون أنا المخطئ إذ طلبت منك أن تجيء إلى هنا ، ولكنك قد جئت . فلا ضررَ عليك إذا ذهبت إلى الملك وقدّمت له ولاءك .

فتردّد الرجل وبقى فى مكانه ، ولكن زكوت قال له هامساً :

ـ تذكر أنك تفعل هذا فى سبيل أخيك پاولو ، إنه شريد طريد ، ولا يتجرأ على الظهور خوف العقاب ، لما سبق من اعتدائه على القاضى . وقد يكون رضاءُ الملك عنك سببًا فى رضائه وعفوه عن أخيك . فتغيرت هيئة الرجل فجأة ، وتبسّم إلى زكوت ، وسار متجهًا نحو حلقة الأمراء .

فتحرّك الواقفون فى دهشة ، واستعدّوا لتحيته . وعند ذلك رفع الملك رأسه عن الورق فوقعت عيناه على ڤاسكو فقال بصوت عالٍ :

ـ أحمد الله على أنك هنا . لقد وجدتُ ما أطلب . هل تحبّ يا ڤاسكو دا جاما أن تذهب فى مهمة خطيرة ؟

فانحنى ڤاسكو إلى الأرض وقال :

ـ أنا خادمك المخلص يا مولاى . مُرْنى تجدنى مطيعًا ، أؤدى لك واجبى إلى آخر قطرة من دمائى .

فقال الملك :

ـ ولك أخٌ على ما أذكر . أيحبّ أن يكون معك ؟

فأجاب ڤاسكو :

ـ لى ثلاثة إخوةٍ يا مولاى . أحدهم صبى ، والثانى قسيس ، والثالث پاولو ، وهو جدير بثقة مولاى .

فقال الملك :

ـــ أحضره إلىّ الساعة .

فقال ڤاسكو :

ـــ إنه يا مولاى هارب طريد ، لا يجرؤ على الظهور ، خوفاً من العقاب على ذنب اقترفه . فقد خاصم قاضى ستبول وجرحه فى مبارزة ، فإذا ظهر لم يأمن أن يُلقى به القاضى فى سجنه .

فقال الملك :

ـــ قد عفونا عنه إكراماً لك يا ڤاسكو . اكتب إليه أنّا عفونا عنه . واجعله يطلب الصفح من خصمه القاضى . وإذا كان ولا بد له من غرامة فإنّا ندفعها عنه .

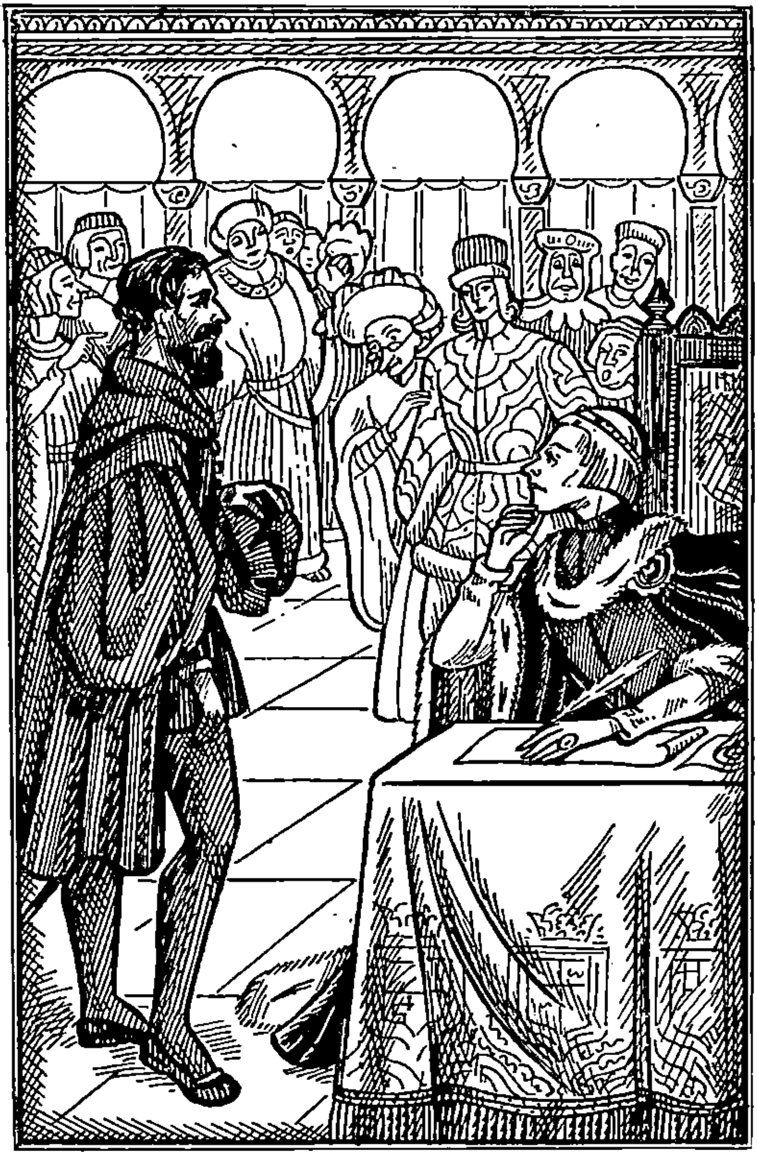
ثم قام الملك وقال يخاطب الحاضرين :

ـــ أيها الأمراء والوزراء ؛ أيها السادة النبلاء ؛ وأنتم يا آل بيتى وحاشيتى ؛ أعلن أننى اخترت ڤاسكو دا جاما ، وجعلته قائداً لأسطولى الذى عقدت النية على إرساله لكشف الهند .

فقال الحاضرون فى دهشة : الهند ؟ !

فاستمر الملك قائلا :

ـــ وقد فوّضت إليه تدبير ما يجب تدبيره لهذه الرحلة من رجال ومن سفن وعُدّة .



فقال ڤاسكو :

— مولاى ! إننى عاجزٌ عن شكر هذا الفضل العظيم ، فإن ما أبديتموه من عطف علىّ دليل على ثقتكم الكريمة بى . ولكن پاولو أخى أكبر سنًّا منى ، وهو أحق بأن يكون القائد دونى ، وسأكون معه أحد الأعوان أطيع أمره عن رضًا .

فقال الملك :

— هذا إخلاص منك لأخيك ، ووفاء نبيل تشكر عليه ، وأنا مسرور به يا ڤاسكو . ولكنى جعلتك أنت القائد ولك أن تجعل أخاك وزيرك تشاوره فى الرأى . فاجعله ربانًا لإحدى السفن ، واختر رجلا ثالثًا تثق فيه ليكون ربانَ السفينة الثالثة . فإنما هى ثلاث سفن سأرسلها معك ، وأنت المقَدَّم فيها جميعًا . فهل عندك رجل ثالث تسميه الآن ؟

فأجاب ڤاسكو :

— نعم يا مولاى . عندى ذلك الثالث ، وهو « نقولا كويليو » ، أخو خادمكم هذا .

وأشار إلى جوان كويليو .

فقال الملك :

— أحسنتَ يا ڤاسكو فى اختيارك ، فشكراً .

ثم نظر إلى الحضور قائلا :

ـ أيها السادة ، اسمعوا ! قد دلت طوالع النجوم على أن الهند سوف يكشفها أخوان من قومنا . وهذا ڤاسكو أحد الأخوين أمامكم . فأنا آمركم جميعًا أن تؤدوا له حقه من التشريف ، كما وهب نفسه لتشريف بلادنا وخدمتها .

ثم التفت إلى ڤاسكو وقال :

ـ تعال إلى مكتبي يا ڤاسكو ، فإن لى معك حديثًا .

ثم حيًا وخرج من الغرفة . ولما مرّ بقرب زكوت وضع فى يده صرّة من النقود .

ووقف النبلاء جميعًا حول ڤاسكو يظهرون له المودّة ، ولم يجد زكوت سببًا يدعوه إلى البقاء ، فتسلل خارجًا مع شين ، حتى إذا ما صارا على مسافة من القصر لحقهما شخص يجرى ، فالتفتا إليه فإذا هو جوان كويليو . فقال لهما جوان :

ـ سأسرع إلى الشمال لأبلغ أخى نبأ اختياره ربّانًا . وأما أنتما فإن ڤاسكو يسألكما أن ترسلا إلى أخيه پاولو لكى يحضر . وهذا خطاب منه يحتوى على كلمتين اثنتين ، حتى يأمن پاولو ، ولا يحسب أن فى الأمر مكيدة . إنكما تعرفان أين هو : فلا تضيعا وقتًا .

فقال له زكوت :

ـ خذ هذا الفتى معك يا جوان . فأنا لا أقدر على الركوب ،

ولا أستطيع أن أسافر إلى المكان الذى فيه پاواو . لأحمل إليه الرسالة . اذهبا أنتما إليه . فأنتما أكثر منى جَلَدًا .

ثم التفت إلى شين قائلا :

— ولا تنسَ أن تخلع هذه الثياب أوّلاً . فإن أختى لم يصنعها لك لتركب بها الخيل ، أو لتنام فيها .

وأسرع الفتيان فى سيرهما ، ليعدّا عدة السفر إلى حيث كان پاولو وكويليو يقيمان .





٥

مرت الأسابيع سريعة ، والقوم يستعدّون للرحلة العظيمة ، يجهزون السفن بما تحتاج إليه ، ويجمعون البحارة من كل من يقوى على الرحلة ، حتى لقد أطلقوا مَن في السجون من الرجال الأشداء ، إذا هم تعهدوا بالسفر وملاقاة الأخطار . وكان فيمن أفرج عنهم من السجون أصحاب پاولو ، ومنهم كاتبه دنيس أخو شين . وجاء پاولو من مخبئه بعد أن أمّنه الملك ، فجعل ربّانًا للسفينة « سان رفائيل » إحدى السفن الثلاث . وأما السفينتان الأخريان فإحداهما « سان جبريل » ، وكان عليها القائد ڤاسكو ، والأخرى « بريو »

وكان ربانها نقولا كويليو .

ولما تم إعدادها جُهزت بالمؤونة والسلاح ، من مدافعَ وبارود ورصاص ، وجعلت فيها القلوع والحبال ، وحملت فيها الثياب مختلفة الألوان والأصناف ، وجمعت بها أنواع شتى من عقود الذهب ، ومن أساورَ وكؤوس وأوان وأباريق وطسوت وسيوف وخناجرَ ودروع ومرايا وأجراس ، وخرز من الزجاج ، وكل ما يخطر على البال من مثل هذه البضائع والتحف . وكان لا بدّ من حمل ما يكفى من المؤونة لمائة وسبعين رجلاً من البحارة ، فاضطر فاسكو أن يأخذ معه سفينة رابعة لتحمل الزاد والبضائع وكان على البحارة أن يتعلموا كل ما يستطيعون أن يتعلموه من الصناعات والحرف ، كالنجارة والحدادة وإصلاح القلوع وما إليها ، فإنهم سيصيرون إلى بلاد لا معرفة لهم بها ، وكان الأكيس لهم أن يستغنوا بأنفسهم فى صنع ما يحتاجون إليه .

وعزم شين على أن يذهب فى تلك الرحلة ، ليكون مع أخيه دنيس ، ومع سيده القديم پاولو . فأقبل قبل السفر على تعلم فن طلاء السفن بالزفت ، حتى صار قلفاطاً ماهر . ورآه زكوت يوماً وقد اسودّ وجهه ويداه من أثر الزفت ، فقال له :

ـــ لقد اخترت لنفسك أقذر المهن يا شين . فهلا بقيتَ معى ،

لعلى أدخل فى رأسك بعض علم النجوم .

فقال شين ضاحكًا :

— لقد دخل إلى رأسى من علم النجوم كلُّ ما يتسع له . ومع ذلك فسوف أكون عند حسن ظنك بى ، وسوف أساعد الربان كويليو على فهم الخرائط وتوجيه السفينة .

فقال زكوت :

—إذن كان الله فى عون السفينة . لسوف تذهب بها إلى القطب لا إلى الهند !

وعند ذلك دخلت راشيل ابنة زكوت ، وكانت واقفة عند الباب تسمع ، فقالت :

— ألا تعرف يا شين ماذا أعطى أبى القائد ڤاسكو ؟ إنه أعطاه أسطرلابه الكبير الخشبى ، واثنين آخرين صغيرين من النحاس . وأعطاه « إبرة مغنطيسية » ظريفة ، ونسخة من « التقويم الجديد » الذى ألفه .

فقال شين :

— إنها هدية تصلح لأمير البحار .

فقال زكوت :

— من المفيد أن يهدىَ الإنسان هداياه إلى العظماء ، كما أنه من

المفيد أن يتقرب الإنسان إليهم بالصداقة .

فقال شين منتفخاً :

ــ وماذا يفيدك من التقرب إليّ أنا ؟

فأجاب زكوت ضاحكاً :

ــ إنك تحسن الرسم ، وسوف تأتى لى معك إذا عدت بخريطة لشرق أفريقية وساحل الهند . وسيكون هذا جزائى على إطعامك وكسوتك . نعم ، فقد كنت تأكل مثل الذئب ، بل لقد كنت مثل ذئبين ، لأن معك كلبك كمارا . وماذا أنت فاعل بكلبك هذا ؟ إنه يقلب لى أوانى البيت ويوسخ الفراش ، ولا أظن امرأتى ترضى عن بقائه هنا .

فقال شين :

ــ سوف أتركه عند أخت جوان كويليو . سوف أتركه لها لترعاه فى غيابى ، فهى تحبه ، وهو يقدر على الخروج معها إلى الصيد إذا خرجت . لقد طال بنا الحديث فأستأذنك فى الذهاب ، لأن أصحابى ينتظروننى .

وخرج شين مسرعاً حتى بلغ الساحل . وكان العمال لا يزالون هناك يدهنون السفينة « سان جبريل » ، فأسرع إليهم ليساعدهم فى طلاء قاعها المسطح .



وسافرت السفن فى يوم السبت السابع من شهر يولية من عام ١٤٩٧ ، تسير فى نهر التاج ، متجهة نحو المحيط ، وكان يومًا حارًّا ، والملك فى مصيفه بعيداً عن لشبونة . ولكن احتفال الناس بالأسطول المسافر كان عظيمًا .

كانت السفن ترفع أعلامها ، وتنشر قلوعها البيضاء العريضة ، وعليها علامات الصليب الحمراء .

وكانت السفينة « بريو » آخر ما تحرك منها ، وكان شين آخر من ركب فيها ، إذ كان يودع كلبه العزيز كمارا . وكأن الكلب قد أحسّ بقرب فراق صاحبه ، فكان حزينًا يرخى ذيله الطويل حتى يمسّ الأرض . وكان الناس على رصيف النهر يودّعون أصحابهم ، وعيونهم تدمع ، ويلوّحون لهم بأيديهم ومناديلهم . ومن ذلك اليوم سمى ذلك المكان « ساحل الدموع » .

وكان بعضهم يقول : « مساكين هؤلاء ، فلسوف يحترقون فى بحار الزفت » ، وكان آخرون يقولون : « لن يعود واحد منهم إلى هذه الأرض . واحسرتاه ! » ، وقال غيرهم : « لسوف تلتهمهم وحوش البحر » . وسارت السفن تقطع البحر ميلاً بعد ميل ، لا ترى إلا السماء والماء .

وجلس دنيس إلى أوراقه ، بعد مضىّ أربعة أشهر طويلة من بدء الرحلة ؛ فأخذ يرسم ويكتب ، وكان هواء البحر قد ملأه قوة وصحة ونشاطًا . فأخذ صحيفة كبيرة ورسم عليها صورة سفن تشق أمواج المحيط ، وبدأ يكتب عليها وصفًا للرحلة . بدأ أول حرف منه بخط كبير ، وجعل للصفحة إطاراً من الأزهار والأوراق وعرائس البحر ، ولوّن ذلك كله بألوان زاهية بديعة . ثم مضى فى كتابته قائلاً : « بسم الله ، وهو المستعان ، آمين . هذه بعثة الملك منويل الأول ملك البرتغال ، أرسلها فى عام ١٤٩٧ فى أربع سفن تطلب طريق الهند . . » واستمر بعد ذلك يصف السفن ويذكر أسماء قوادها ومن عليها من بحارة ، وما لقيت فى سبيلها من الأحداث .





٦

وكتب دنيس :

« فى يومِ السبت الخامسَ عشرَ من يولية بلغنا جزائرَ الخالدات ، وكان الضبابُ فى الليل كثيفـًا ، فلم يستطع بعض السفن أن يهتدىَ إلى بعض ، مع أننا كنا نوقد مصابيحَ ملوّنةً على رؤوس الصَّوارى . ثم سرنا فى البحر إلى جزائر الرأس الأخضر. وهدأت الريح ، وأبطأ سير السفن ، حتى أتى شهر أغسطس، ومرّ منه نصفُه ، فرأينا طيوراً تتَّجه إلى الجنوب الشرقى ، كأنها تقصد إلى أرض قريبة ، ولكنا لم نرَ أرضًا ، ولم يكن حولنا إلا البحر وما فيه من حيوانٍ مختلف

الأنواع من حيتان وسباع ماء » .

(وهنا رسم دنيس صور الحيتان وهى تقذف الماء إلى ما فوق سطح البحر) .

ورأينا على وجه الماء حشائش كثيرة ، فاستبشرنا بها ، ورجَوْنا أن نرى أرضًا قريبة بعد أن طال بنا ركوب البحر ، وضاقت نفوسنا من وَحشته ، وسئمنا من السير فى الليل والنهار لا نرى إلا الماء والسماء ؛ ولم يأت اليومُ الرابع من نوفمبر حتى طلعتْ علينا بشائر الأرض ، فاقتربت السفنُ بعضها من بعض ، وذهبنا نلبَس أحسن ثيابنا ، وزيّنّا سفننا بالأعلام ، وأطلقنا مدفعًا لنحيي به القائد العام ، ودخلنا إلى خليج واسع ، فألقينا فيه مراسينا ، وسميناه خليج « سنت هيلانة » ، وأخذنا نُنظف السفن مما تعلق بها من الأعشاب والأصداف ، وأقبلنا على القلوع التى مزقتها الرياح ، فأصلحناها ، ثم نزلنا إلى الأرض ، فلما وضعنا عليها أقدامنا خيل إلينا أنها تغوص بنا ، كأننا قد نسينا السير فوق اليابسة .

وكان أهل تلك الأرض من السود ، لونهم مثل لون « فرنان مارتينز » عبد پاولو دا جاما ؛ وهم قصار القامة ، يأكون الحيتان وسباعَ البحر وجذورَ الأعشاب ، ويلبسون جلود الحيوان ، وسلاحهم حرابٌ قصيرةٌ مسنونة » .

(وهنا رسم دنيس فى صحيفة أخرى أشكال طيور البحر التى رآها ، وهى طائرة فوق الماء حيناً ، أو مائلة إليه لصيد السمك حيناً ، أو واقفة فوق قِمَم الصخور) .

« وفى اليوم التالى أخذْنا أحدَ السُّود، وذهبنا به إلى القائد العامّ ، فأطعمه وكساه . فلما عاد إلى قومه بعث إلينا جموعاً منهم فنزل إليهم ڤاسكو ، وأخذ فى يده شيئاً من القرنفل والقرفة وبعض لآلئ وقطعةً من الذهب ، وعرض ذلك عليهم . وكان فرنان عبد پاولو يحاول أنْ يترجِم لهم قول القائد ، فسألهم : هل عندهم شىء من ذلك ؟ فلم يجدْ عندهم منه شيئاً .

فأعطاهم القائد أجراساً وخواتم من القصدير وبعض دراهمَ من النحاس ، وأعطوْه نظيرَها بعض أصداف مما كانوا يلبسونه فى آذانهم ، وأهدوْا إليه ذيل ثعلبٍ مربوط فى يد من الخشب يستعملونه ليطردوا الذباب عن وجوههم » .

وذهب شين إلى أخيه فى سفينته فوجده مشغولا فى كتابته ، فصاح به يناديه ، فرفع دنيس رأسه إليه وترك الكتابة ، فقال له شين :

— ماذا تفعل يا أيها البومةُ العجوز ؟

أتجلس للكتابة فى مثل هذا الصباح الجميل ؟ أليس هذا الجو يشبه هواء بلادنا إيرلندة ؟ تعال معنا فإننا ذاهبون إلى البر .

وكان مع شين جماعة من البحارة فيهم الربان كويليو وفيلوزو رئيس البحارة وفرنان الأسود عبد پاولو .

وكان على البر جمعٌ من السود يبلغون نحو الخمسين ، فلما نزل شين وأصحابه وجد القائد فاسكو هناك مع جماعة من أصحابه ، والسود من حولهم ينظرون إلى ملابسهم ويلمسون القطيفة الناعمة التى عليهم ، ويتكلمون بلغتهم ويضحكون .

وشدّ واحد منهم ثوب فيلوزو ، وكان من القطيفة ، فمال إليه فرنان يسمع ما يقوله ، ثم صاح ضاحكًا :

ــ إنه يدعوك يا سيد فيلوزو لتذهب معه إلى بيته .

فقال فيلوزو :

ــ حبذا لو ذهبت معه لأرى كيف يعيش هؤلاء ، ولعلى أجد عند بعضهم ذهبًا مخبوءاً .

فقال له فاسكو :

ــ لا تبعدْ عن هنا يا فيلوزو .

ــ فأجاب فيلوزو :

ــ لا تخف علىّ فإنى قد أعجبتهم ، كما أعجب الناسَ فى كلّ مكان .

وذهب مع السود وبقى فاسكو مع شين على الشاطئ يقيسان

علوّ الشمس عن الأفق بالأسطرلاب ليعرفا موقع الجزيرة . وأما كويليو وأصحابه فقد ساروا على جانب البحر يجمعون قطع الأخشاب ، ويصيدون من حيوان السرطان، ثم أوقدوا ناراً فشووها وجعلوا يمصون ما فى أعضائها من لحم ، وأتى إليهم شين بعد حين فشاركهم فى الأكل، وبدأوا يتحدثون ، فقال جوان كويليو .

— أتظنّ يا شين أن أمامنا بحراً من الزفت كما يزعُم الناس ؟

فأجاب شين وهو يمص قطعة من الطعام :

— إنها خرافة. ثم سار بعيداً . وهو يَمُصّ قطعةً أخرى .

فصاح جوان ، وهو يجرى وراءه .

— ألا تعرف إلاّ هذا الجواب القصير ؟

فقال شين :

— وماذا تريدنى أن أقول ؟

فقال جوان :

— قل لى كيف حالكم فى السفينة بريو .

فأجاب شين :

— حالنا هو حال من يعيشون على سفينة : نأكلُ وننام ونلاحظ القلوع نهاراً من الرياح ، ونحرسُ المصابيح ليلا حتى لا تُطفأ . وأما طعامُنا فهو اللحم المُملَّح والخبز المُقَدَّد اليوم ،

ثم من اللحم المملَّح والخبز المقدَّد فى الغد ، فإذا جلسنا للسمر أخذ كل منا يتحدث عن الذهب الذى سوف يعثر عليه ، ويسرح مع خياله ليصوِّرَ لنفسه كيف يصرِّفه إذا عاد إلى بلاده .

فقال جوان هامساً :

ـ ألا يملأ الخوف قلوبَ أصحابك ؟

فقال شين :

ـ الخوف ؟ ومِمَّ نخاف ؟

فقال جوان :

ـ من كل شيء : العواصف ، ووحوش البحر ، والنجوم الغريبة التى تطلع علينا ولم يسبق لنا عهدٌ بها .

وكانا قد صارا وحدهما عند ذلك ، فمال جوان على شين وقال له هامساً :

ـ إن بحارة سان جبريل يحدثون أنفسهم بالثورة على القائد . ولولا أنهم يخافونه لثاروا عليه منذ أيام .

فقال شين : أما نحن فلا يحس أحد منا خوفاً . اللهمَّ إلا « ماكادو » و « رودريجو » .

واقترب دنيس منهما فى تلك اللحظة ، فسأله جوان عما سأل عنه أخاه شين ، وكان جوابُه مثل جواب أخيه .

والتفت جوان إلى ناحية من الشاطئ فرأى جماعة من البحارة جالسين حول نارٍ فقال :

– هذا « بيرود لنكور » وهذا « جنزالو » ، وأراهما مشغولَين فى حديث طويل . وكان الأول رئيس البحارة فى سفينة سان جبريل والآخر مساعده .

فقال دنيس :

– وأى عجب فى أن يتكلم الناس معًا ؟

فقال جوان :

– ولكن هذيْن لا ينقطع لهما حديثٌ عن مخاوف البحر . وأنا أعرِف أنهما يكرهان القائد ڤاسكو . ولذلك فهما يتأففان من كل شىء ، من الأكل ومن الشرب ومن النوم ومن العمل . ولو كنت القائد العامّ لما تركتهما بين البحارة .

وسُمعتْ عند ذلك أصوات أبواق تدعو البحارة للرجوع إلى السفن ، فأسرعوا جميعًا حتى نزلوا إلى قواربهم . ولكن شين تذكر ڤيلوزو ، وأنه ذهب مع السود ولم يرجع بعد ، فصاح قائلا :

– لقد نسينا ڤيلوزو . إنه لم يَعُدْ .

فصاح دلنكور :

لسنا نستطيع انتظاره بعد هذا ، وعليه أن يأتى إلى السفينة سابحًا .

إن الأوامر تحتم علينا أن نعود حالا .

وسار القارب حتى وصل إلى السفينة بريو ، وعند ذلك ظهر ڤيلوزو من بعيد على الشاطئ يجرى ، ورداؤه الأحمر يسبح وراءه فى الهواء ، وكان يصيح فى فزَع ، ويلوح بيديه فى الهواء وسمع ڤاسكو صوته وهو فى سفينته سان جبريل ، فصاح قائلا :

ـ عودوا بالقارب إلى البر لتدركوا ڤيلوزو . إن السود وراءه .

فوثب كويليو إلى القارب ، وأمر البحارة أن يجذفوا شديداً . ووثب القائد ڤاسكو إلى قارب آخر وأسرع بحارته يجذفون . ولما اقتربوا من الشاطئ رأوا ڤيلوزو ما يزال يجرى ومن ورائه جمع من السود الأقزام ينحدرون نحوه من فوق رَبْوَة رملية وهم يصيحون ويرمون عليه حرابهم القصيرة .

فصاح كويليو ينادى ڤيلوزو :

ـ انزل إلى الماء أيها الأحمق . أتخشى على ثيابك أن تبتل ؟!

فنزل ڤيلوزو يخوض فى الماء حتى بلغ ركبتيه ، وكانت الحراب تتطاير وراءه وتقع من حوله فى الماء ، فصاح به ڤاسكو .

ـ ألا تعرف العوم ؟ تقدّم فاسبح .

ولكنه وقف حائراً يُمسك بأطراف ثيابه فى يديه ، والحراب ترشق الماء من حوله .

فاقترب القارب منه وتعاون فرنان وشين على رفعه من الماء ، وكان يرتعدُ ويبكى . وأصابت الحراب القصيرة اثنين من البحارة ، ولكن جراحهما لم تكن جراحًا شديدة . وصاح ڤاسكو ببحارة القارب الآخر :

— عودوا أنتم إلى السفينة .

وأما هو فقد وثب من قاربه والسيفُ فى يده ، ووثب وراءه البحارة الذين كانوا معه ، وهم يحملون السيوفَ والأقواس . فلما رآهم السود عادوا مسرعين وهم يتلفّتون وراءهم بين حين وآخر ويرمون حرابهم على ڤاسكو وأصحابه فأصيب أربعةٌ من البحارة بجروح خفيفة ، وأصيب ڤاسكو فى رجله ، وما هى إلا لحظات حتى كان السود قد صعدوا فوق التلّ واختفوا على الأنظار فلم يظهرْ لهم أثر .

فلم يجد ڤاسكو بُدًّا من الرجوع ، وأخذ يمسح الدم عن جروح أصحابه ويضمِّدها لهم بيديه بخرق يقطعها من قميصه ، فقال له كويليو:

— دعنى أضمِّد لك جرحك يا سيدى .

فضحك ڤاسكو قائلا :

— إنه خَدْشٌ خفيف فلا تبال به . وقد أصابنا كل هذا لأننا حسبنا هؤلاء السود لا يستطيعون الأذى . وهذا درس يجب علينا أن نحفظه .

ولما عاد ڤاسكو إلى السفينة أخذ كويليو يضمِّد له جُرحه ، وخلع

له نعله فوجدها ممتلئةً بالدم . وقد كان جرحًا عظيمًا ، وإن كان هو لم يظهر ألمًا .

فقال جوان عند ما رأى الجرحَ الكبير :

— لقد كان ڤيلوزو سببًا فى كلّ هذا ، ما كان أكثر ادّعاءه فى أول الأمر ، وما كان أشد جزعه فى آخره !

وكان ڤيلوزو قد أصيب كذلك بجرح خفيف فى ذراعه ، فأخذ يبكى بكاءً شديداً مع أنه كان معروفًا بين أصحابه بالمباهاة والتفاخر ، وكان من أكثر الناس فخراً وادعاء ، وطالما قضى الساعات كل يوم يحدّث إخوانه عن بحارِ الزفت ووحوش الماء . فلما رأى أصحابُه خوفه وجزعه ، وأنه لم يجرؤ على السباحة ليخلص من أعدائه ، أخذوا يسخرون منه ، فقال له فرنان الأسود :

— لعلك يا ڤيلوزو لا تُحسن السباحة إلا فى بحار الزّفت .

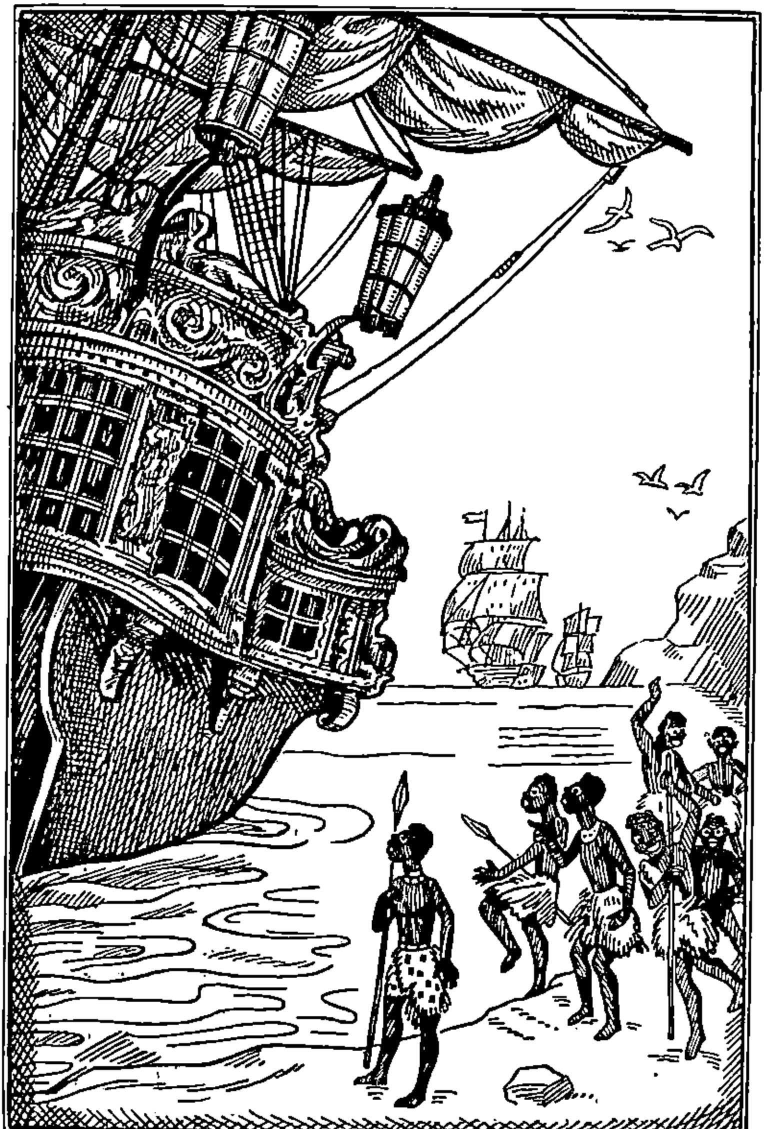
وضحك البحارة ضحكًا عاليًا .

وتركتِ السفن بعد حين جزيرة سنت هيلانة ، وخرقت البحر إلى رأس العواصف ، وكان جديراً باسمه حقًّا ؛ فإن العواصف هبَّت عنده على السفن وعاقت سيرها أيامًا ، فلم تستطع أن تدورَ حوله إلا بعد جَهدٍ جهيد . ولما نفذت إلى الجانب الشرقى من أفريقيا عَجِب البحارة إذ لم يجدوا عنده بحراً من الزفت كما كانوا يسمعون ، بل وجدوا

بحراً مثل سائر البحار فسيحًا أزرقَ مائجًا ، يندفع على صخور الشاطئ وزمجراً عنيفًا .

وعرّجت السفن إلى خليج هادئ ، فألقت كلٌ منها أنجرها في مكان اختارته لنفسها ، وسمى ذلك الخليج « سان براتز » ولما استقرّوا واستراحوا أمر القائد بتحطيم السفينة النقالة ، إذ ظهر له فسادها ، وقد أصبح في غنى عنها بعد أن قلّ ما عليها من المؤونة . ولكنه أخذ مساميرها وما يمكن أن يستفيد به منها ، فحمله معه احتياطًا . وجاء بعضُ السود إلى الشاطئ فوقفوا حينًا ينظرون إلى السفن العجيبة والوجوه الغريبة ؛ ولكن ڤاسكو كان عند ذلك أكثر حذراً ، فلما نزل إلى الشاطئ هو وبحارتُه حملوا معهم السلاح وتحرّزوا . وأعطُوا السود بعض الهدايا ، وأخذوا منهم نظيرها أساور من العاج ، واحتفل بهم أهل الأرض احتفالا كبيراً ، فرقصوا لهم وغنّوا ، وشاركهم بعض البحارة في الرقص والغناء ، وكان شين يضرب معهم على عوده ، وجوان يضرب على قيثارته .

وأتى السود بثور فاشتراه منهم ڤاسكو بثلاثة أساورَ من الزجاج ، فذبحه البحارة ، وأقاموا على لحمه المشويّ وليمة كبرى . ولما تعبوا من الرقص والغناء جلسوا يتحدّثون في حلقات على الشاطئ . وانتحى شين مع صاحبه جوان ناحية ، فجلسا وتظاهرا بأنهما يُغنيان طربًا . وعادا إلى حديثهما الأول عن المؤامرة التي كشف جوان أمرَها بين



المتذمّرين من البحارة . . .

فمال جوان على صاحبه وقال له وهو يضرب على قيثارته :

– سنسافر غداً ، ولعلّ هذا يكون آخر حديثٍ بيننا .

فقال شين :

– وما الذى يدعوك إلى هذا القول ؟

فقال جوان :

– لقد انضم إلى سفينتنا بعضُ بحارة السفينة النقالة التى أمر القائد بتحطيمها ، فلما رأيت وجوههم لم تُعجبنى ، ويُخيَّل إلىّ أن الشرّ يبدو عليها ، ولست أشك فى أنهم سيزيدون بحارتنا فزعًا وتذمراً .

فقال شين وهو يضرب على عوده :

– وأنا كذلك قد داخلتنى الشكوك ، فإن ڤيلوزو الشجاع يكثر من الجلوس مع بعض بحارة السفينة النقالة ، ويتعمّد أن ينزوى بهم فى الأركان البعيدة ، ألم تنقل إلى أخيك نقولا شيئًا من مخاوفك ؟

فأجاب جوان :

– نعم ، تحدثت معه مراراً ، وقد زعم فى أول الأمر أننى أبْلَه خفيفُ القلب ، فلما أعَدْت عليه الكلام قال لى إن مخاوفى لا محلّ لها ، فإن البحارة كانوا فى بدْء الرحلة يخافون مما

قيل لهم عن بحار الزفت والوحوش ، ولكنهم بعد أن وصلوا إلى شرق أفريقية رأوا البحر هناك بأعينهم ، فلم يجدوه إلا كما عرفوا من البحار الأخرى . ولا شكَّ أن هذا يذهب عنهم المخاوف والقلق .

وعند ذلك حانتْ نظرةٌ من شين إلى ناحية دلنكور ، فرآه جالسًا فى حلقة مع بعض البحارة حول نار بعيدة ، فسَّ ذراعَ جوان قائلا :

— انظر إلى دلنكور ؛ ألا ترى وجهه ؟ إنه بلا شك يتآمر مع أصحابه على شيء مُفْسِد .

فقال جوان :

— وهل يجدر بنا أن نرى هذه المؤامرات تُدَبَّر حولنا ولا نحرّك ساكنًا ؟

فقال شين :

— اسمع . تعالَ نتفق على إحباط هذه المؤامرات معًا . فإذا وجدتَ فى سفينتك علامةً تدل على الثورة فابعث إلىَّ بإشارة .

فقال جوان :

— وكيف أبعث إليك بالإشارة والبحرُ يفصل بيننا ، وقد يكون الليل مظلماً ، وقد تكون الريح عاصفة .

فقال شين :

— لتكن الإشارة بيننا أن يغنِّىَ أحدنا على قيثارته أغنية .

وها ذى أغنيةٌ حسنةٌ .

ثم اندفع يغنى :

كان دَرْميدُ خائناً ويلَه من فتى زنيمْ
جاء يسعى مع العدا ورمى القومَ فى الصميمْ
خرّبوا كلّ عامر واستباحوا الحمى الكريمْ
واستبدّوا بأمرِنا إنّه مرتع وخيمْ

فأخذ جوان يعيد الأغنيّة حتى حفظها ثم أضاف جوان كأنه مستمرٌ فى غنائه :

ليتنا نعرف ماذا بيّتوا حول تلك النارِ من مكر ذميمْ

وانطلقا يسيران نحو مجلس دلنكور .

وهمس شين قائلا :

ــ أترى كيف قطعوا الأحاديث عندما أحسوا أننا نقترب منهم ؟
وفيما هما يسيران كذلك نفخ فى الأبواق إيذاناً بالعودة إلى السفن ؛ وكانت الشمس قد مالت إلى الغرب ، وقرب حلول الظلام ، فأسرع الفتَيَان كلٌ إلى قاربه . وقال شين وهو يركب :

ــ لا تنس الدَّرْميد يا جوان . تلك الوردة البيضاء .

فضربه جوان على كتفه ضاحكاً ووثب إلى قاربه . وسمع رئيس بحارة السفينة بريو قولهما فسأل :

— وما ذلك الدرميد يا شين ؟

فأجاب شين ضاحكًا :

— كان أحد أجدادى فى إيرلندة .

ثم أخذ يغنى كما كان يغنى من قبل . وكان ڤيلوزو ودلنكور سائرين يتحدثان على مسافة فوق الشاطىء ، ومعهما رجلٌ ثالث ممن كان فى السفينة النقالة . وكانوا يسيرون على مهل كأنهم يريدون إتمامَ حديثٍ خطيرٍ ، فصفر لهم بحارة القارب فأسرعوا ووثبوا راكبين .

وقبل أن يبدأ السفر فى الصباح لقِيَ شين أخاه دنيس ، وأخبره بما سمع من جوان عن بحارة سان جبريل ، وما قاله عن سخطهم وتذمُّرهم ، ولكن دنيس لم يصدّق قوله ، لأنه لم يلاحظ شيئًا فى بحارة سفينته التى كان عليها ، وهى سان رفائيل .

فقال له شين .

— أحب أن تنقل هذا القول إلى السيد پاولو دا جاما .

فقال دنيس :

— لن أقول شيئًا إلا إذا رأيت بعينى ما يدعو إلى الشك . فإنى لا أحبّ الثرثرة الفارغة .

وذهب دنيس إلى مائدته على السفينة رفائيل ، وجعل يرسمُ أشكالا من طيور « البنجوين » التى رآها . وقال يخاطب شين :

— انظر إلى هذه الصور ألا تعجبك ؟ ألا تراها صوراً صادقة لتلك

الطيور التى لا تحسن إلا النعيق .

فقال شين :

– هى كذلك .

ثم همس قائلاً :

– أتعرف شخصًا اسمه پدرو دياز ؟

فأجاب دنيس :

– نعم أعرفه ، فقد كان فى السجن وأطلقه الملك ليأتى معنا إلى هذه الرحلة . وكان إطلاقه على شرط أن يقبل التعرض للمخاطر .

فقال شين :

– قد رأيته بالأمس يتحدث مع ڤيلوزو ودلنكور ، وقد حدثنى عنهم جوان قائلا إنهم يدبـِّرون معًا مؤامرة .

فقال دنيس ضاحكًا :

– إن خيالكما لواسع أنت وصاحبك . ولكنى سأفتح عينى لعلى أرى دليلا على صدق ظنونكما .

ولما بدأت السفن السير أمر ڤاسكو دا جاما بنقل دنيس إلى السفينة بريو ليُخلى غرفته لأحد ضباط السفينة النقالة . وبهذا صار دنيس مع أخيه فى سفينةٍ واحدة . وطال السفرُ على البحارة شهراً بعد شهر حتى عاد الملل إلى قلوبهم ، بعد أن كانوا يحسبون أنهم سوف يصلون

إلى الهند إذا ما داروا حولَ طَرف أفريقية . ومما زادهم مللاً أن الريح هدأت ، وكان تيار الماء قويًّا يقاوم سير السفن ، وكانت تبقى اليوم بعد لليوم فى مكانها لا تكاد تتقدّم شيئًا . وكان جوان على سفينة القائد ڤاسكو يرى البحارة يُطيعون الأوامرَ وهم عابسون ، ثم يجتمعون فى الأركان يتحدثون فى غضب ، حتى إذا اقترب منهم سكتوا . فإذا جلس يغنى على قيثارته ، لم يجيئوا إليه كما اعتادوا من قبلُ أن يحيطوا به إذا غنى ويردّدوا غناءه .

ثم هبَّت الريح يومًا ، ولكنها هبت عاصفة ، فإذا السفن تتقاذفها الأمواج ، وتلعب بها الرياح ، وانخلعت القلوع ، وطقطقت الصوارى ، وهطلت الأمطار كالسيول ، واسودَّت السماء بغيومها ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج الإنسانُ يده لم يكَد يراها . ولم تهدأ العاصفة إلا قرب المساء ، فسكتت على حين فجأة ، وخمدت الريح ، ووقفت السفن ، وصارت الأمواج الهائجة تدفعها وتخبِطها . وتميل بها من جانبٍ إلى جانب .

فذهب بيرو دلنكور إلى القائد وطلب منه أن يأمرَ بالعودة إلى الشاطىء . ولكنّ دا جاما أجابه هادئًا :

— إنى أقسمت فى لشبونة ألاّ أعود إلى الوراء شبراً واحداً .

ثم نظر إلى الرجل نظرته الثاقبة قائلا :

— عُدْ إلى مكانك فى السفينة ، فنحن ذاهبون إلى الهند .

فذهب دلنكور إلى مؤخَّر السفينة ، وذهب ڤاسكو إلى غرفته ، وكان كل منهما يقطُر الماء من أعلاه وأسفله .

واقتربت السفن بعضها من بعض فنادى بحارة سان جبريل إخوانهم على السفن الأخرى قائلين :

— سوف نرى قاع البحر قبل أن نرى أرض الهند .

ولم يتعرضْ لهم دلنكور بكلمة زجرٍ أو عتاب .

وقال بحار من السفينة بريو :

— ما لنا نرمى بأنفسنا إلى التَّهلكة ؟ ولِمَ نخشى أن نُظهر ما فى نفوسنا ؟ ألسنا نحن الأكثرين ؟ وهل يستطيع قائد واحد أن يقف فى سبيلنا ؟

فصاح دلنكور :

— هذا هو الحقّ ، لا فضّ فوك !

— وكان چوان كويليو قد ربط نفسه إلى السارية خوف أن تقذف به السفينة فى شدَّة حركتها إلى البحر . فلما أن هدأت العاصفة شيئًا ذهب إلى أسفل السفينة فأتى بقيثارته وأخذ يضرب عليها أغنيته :

كان درميد خائنًا ... ويْله من فتى زنيمْ !
جاء يسعى مع العدا ... يضرب القوم فى الصميم

ولما أتم الأغنية وقف منصتاً لعله يسمع جواباً من صاحبه شين فى السفينة الأخرى ، ولكنه لم يسمع إلا زئير الأمواج ، وهى تدفع السفينة وتتقاذفها . وكانت السفينة بريو تجاهد الموج وهو يخبطها ، ويعلو برءوسه إلى سطحها ، يكاد يطويها فى جوفه . ومضت مدة ثم رنت الأغنية على عود شين ، وانبعث صوتها يخفق مع الهواء . فقال چوان فى نفسه :

— إذن لقد اقتربت الساعة .

وضرب مرة أخرى على قيثارته ليفهم شين أنه قد سمعه . وفيما هو فى ذلك جاء إليه دلنكور وصاح به :

— إنك هنا تنعق وتنهق ، والسفينة تكاد تهوى إلى قاع البحر ، ألا تجد لك عملا غير هذا الغناء السخيف ؟

فقال جوان :

— قد قمتُ بحصَّتى من الحراسة ، وأنا أغنى كعادتى كلما فرغت من عملى .

فصاح دلنكور فى جفاء :

— كفى سخفاً هذه الليلة . واذهب إلى مخدعك فى أسفل السفينة ، فصوّتْ إذا شئت هناك .

فسار چوان بقيثارته متظاهراً بأنه ذاهب إلى مخدعه ، ولكنه تسلل ذاهباً إلى غرفة القائد ڤاسكو ، فرآه عند عتبتها يُلقى عباءته

على كتفيه ويهمّ بالخروج . وكانت ثيابه لا تزال مبللة ، فقال له چوان :

– إنه وقتُ عشائك يا سيدى . والطباخُ مريض ، والنار قد أطفأتها مياه الأمواج فهل تحبُّ أن أعدّ لك شيئًا من الخبز والعسل ؟ !

فقال ڤاسكو :

– لست أريد الآن طعامًا . فأنا ذاهبٌ إلى سطح السفينة .

ثم همّ بالسير ولم يلتفت إلى الفتى . فناداه چوان هامسًا :

– مهلا سيدى . قد بعث صديقٌ برسالة يقول فيها إنهم يدبّرون مؤامرةً فى السفينة بريو .

فالتفت ڤاسكو إليه فى دهشة وقال :

– رسالة ؟ ! وكيف بعث إليك بتلك الرسالة ؟

فقال چوان :

– غنى لى أغنية على عوده . وهى الرمز بيننا ثم حكى للقائد كل ما حدث بينه و بين شين ، وكل ما رآه وما سمعه .

فقال ڤاسكو باسمًا :

– أليس لى صديق بين كل هؤلاء ؟ أليس لى صديق غيرك أنت وقيثارتك ؟ ثم لفّ عباءته المبللة على كتفيه ، وسار متجهًا إلى سطح السفينة فقال له چوان :

– ألا تأخذ سلاحك ؟ ألا آتى معك ؟

فأجاب فاسكو :

ـ أتريد أن يحسب البحارة أنى خائف ؟ لا بل اذهبْ أنت يا فتى فامسحْ قيثارتك ونمْ ، فإن الرياح قد بدأت تهبّ مرةً أخرى ، وسوف تحملنا إلى الهند مسرعة .





٧

كان بحارةُ السفينة سان رفائيل كإخوانهم فى السفن الأخرى ، قد أخذ منهم الخوفُ كل مأخذٍ فى تلك العاصفة الهائجة ؛ ولكنهم مع ذلك لم يميلوا إلى الثورة لشدةً حبهم للرُّبان پاولو دا جاما . فقد كان پاولو يُواسى مرضاهم ، ويعرف بحارته واحداً واحداً ويسميهم بأسمائهم كأنهم أبناؤه . وكان يبسم لهم إذا رآهم ، فإذا أمرهم أمراً أطاعوه عن محبة وولاء . فلما اشتدت عليهم العاصفة سألوه أن يعودَ بهم إلى برّ أفريقية . فلما رفض ذلك لم يغضبوا ، ولم يحسُّوا نحوه حنقاً ولا غيظاً . وأما السفينة بريو فكانت أصغرَ السفن ، ولذلك

كانت العاصفة تمخضها مخضًا . وكان ڤيلوزو بحاراً فيها ، فكان كلما اهتزّت ومالت وطقطقت صواريها صرخ وناح ، وتمنى لو كان بقى فى سجنه ولم يأت إلى تلك الرحلة . وكان كثيرٌ من إخوانه فى تلك السفينة مثله ، ممن أطلق سراحهم من سجن ستبول ، على شرط أن يتطوّعوا بمقابلة المخاطر ؛ وكانوا يشاركونه فى تذمّره وجزعه ، ولا يفكرون إلا فى أمر واحد ، وهو أن يضعوا أقدامهم مرّةً أخرى على أرضٍ يابسة . فأخذوا يتآمرون ليثوروا على القائد ڤاسكو ويرغموه على العودة بهم . وكان أسبقهم إلى المؤامرة بعد ڤيلوزو : ماكادو ورودريجو . فدبروا فيما بينهم مكيدة ، أن يستميلوا إخوانهم وينتظروا حتى تهدأ العاصفة ثم يقوموا بثورتهم . لأنهم خافوا إذا بدأوا الثورة فى أثناء العاصفة الشديدة أن يعجزوا عن تسيير السفن . وقيادتها ، فتغرق بهم ويهلكوا جميعًا .

واتصلوا بإخوانهم واحداً بعد واحد . حتى جاءوا إلى دنيس وعرضوا عليه الاشتراك فى مؤامرتهم ، فتظاهر بموافقتهم . ولكنه أفضى إلى أخيه شين بما قالوا له . وكان شين عند ذلك واقفًا على سطح السفينة يستمع إلى قيثارة چوان ، وهو يغنى عليها أغنيته التى سبقت الإشارة إليها . فذهب شين إلى الربّان كويليو ، وكانت العاصفة لا تزال على أشدها . والبرقُ يلمع والرعد يقصف ، والأمطار تهطل كأنها أفواهُ القرب . وكانت الأمواج تساعد الأمطارَ بما ترسله

على سطح السفينة من رؤوسها العالية . فلما سمع كويليو ما قاله شين لم يتحرك ، ولم يظهر خوفًا بل قال :

ـ هكذا البحارة دائمًا . فهم إذا هبَّت عليهم العواصفُ تذمَّروا من الخوف ، وإذا هدأت الريح تذمروا من بطء سير السفينة. وقد لاحظت الغضب على وجوه بعض البحارة مثل رودريجو وما كادو ، ولكن لا يهمك هذا . اذهب إلى الطباخ فقل له يجهز لى طعامى .

وما كاد شين يذهب حتى أقبل جمع من البحارة على كويليو يطلبون منه العودة إلى ساحل أفريقية . فقال كويليو بصوته القوى :

ـ أيها الإخوان، علينا الآن ألا نفكرَ إلا فى النجاة من هذه العاصفة . فإذا هدأت الريح ، وأمكننى أن أرى القائد ، أو أتصلَ به، طلبت منه الرجوع إلى الساحل كما تحبون .

فقنع منه البحارة بهذا الوعد ، وانصرفوا إلى مكافحة الرياح .

وفى اليوم التالى هدأت العاصفة ، واستطاعت السفينة بريو أن تقترب من سان جبريل . فوقف كويليو على السطح ، ونادى القائد ڤاسكو فقال له :

ـ إن السفينة تتحطم فى العاصفة ، والموت يهدّدنا فى كل خطوة نخطوها . ورجالى يضرعون إليك أن تعود بهم إلى الشاطىء . فإذا

نحن لم نرجع بهم لم نأمن أن يعصُوا أمرنا ويثوروا علينا . فالواجب أن نعمل على تخليص أنفسنا ، وأن نسعى إلى نجاة الجميع . هذا ما أحبُّ أن أقوله لك ، وهذا ما عزمت عليه أنا إذا أنت لم توافقنى .

فسمع ڤاسكو قول كويليو وأجابه قائلا :

ــ سوف أتحدث مع أصحابى الذين معى هنا ، والذين فى السفينة الأخرى ثم أخبرك بما تتفق عليه آراؤنا .

وأدرك ڤاسكو من قول كويليو أنه إنما يحذره ، ويعامه بالأمر ، لأنه كان واثقًا من إخلاصه وشجاعته .

وجمع ڤاسكو بحارته ورؤساءهم ، وقال لهم :

ــ لست أدّعى لنفسى أننى أشجع من أحد منكم أيها الإخوان ، ولا أدّعى أننى لا أخشى الموت . ولست قاسىَ القلب فلا أَلينُ لما أراه من دموعكم وآلامكم . فأنا واحدٌ منكم ، ولن أدفعَ بكم وبنفسى إلى الهلاك أبداً . غير أنى أحب أن تعلموا جميعًا أن واجبنا يقضى علينا أن نجتهد فى السير كلَّ جهدنا ، وأن نتحمل المشقّة ما أمكننا تحملها ، حتى إذا اضطرِرْنا إلى العودة كان عذرُنا واضحًا عند مليكنا . فلنمض الآن فى رحلتنا ما دامت الرياح هادئة ؛ فإذا عادت العاصفة مرةً أخرى فإنى سوف أعود بكم إلى البرّ ، إذ لا يكون لنا مفرٌّ من العودة . وسأكتب لكم محضراً بهذا نوقعه جميعًا ، حتى يكون الأمر على اتفاق منا .

فصاح الجميع سروراً ، وهتفوا له استحساناً :

واستمر ڤاسكو قائلا :

– ولكنى أظن الأمر لا يحتاج إلى أن نوقِّع على المحضر كلنا . فيكفى أن يوقع عليه الخبيرونَ منا بسير البحار ، فإن رأيهم أعظم وزناً عند مولانا الملك .

ونظر إلى دلنكور والڤاريز ، وقال لهما : أحب أن تختارا ثلاثة من إخوانكم تظنون أنهم أكثرُ البحارة خبرة بالملاحة . ثم تعالوا إذا دعوتكم إلى غرفتى . وإنى ذاهب الآن لأعدَّ لكم المحضر مع كاتبى ، وسأرسل إليكم لتأتوا واحداً بعد واحدٍ للتوقيع .

ثم نزل إلى غرفته وخاطب چوان قائلا :

– اذهب إلى پاليا وپيريز فأحضرهما .

ثم نظر إلى الكاتب وقال له :

– خذ ورقةً من أوراقك ، وخُطَّ عليها بقلمك ألفاظًا ، وإن كانت لا تفيد معنى . اكتب فيها ما شئت ثم انتظر أمرى .

وجاء پاليا وپيريز ، وكانا من أشد البحارة إخلاصًا للقائد ، فقال لهما :

– قفا هاهنا وراء هذا الباب وجهِّزا معكما حبالا متينة ، ثم

انتظرا حتى آمركما فتشدّا وثاق من آمركما بتقييدهم . وهذه كمامات تضعانها على أفواههم حتى لا يسمع أحد لهم صوتًا . ولكن إيا كما أن تضربا أحداً أو تستعملا سلاحًا إلا إذا كان لا مفر لكما من ذلك للدفاع عن نفسيكما ، ثم نظر إلى جوان وقال له :

— اذهب الآن إلى دلنكور ، وقل له إنى أنتظره . ثم سِرْ وراءه حتى يجىء إلى هنا ، وقف وراء الباب . فإذا سمعْتنى أقول له : « وقّع باسمك » فانظر إليه حتى يوقعَ ، ثم أغلق الباب ، وأحكم إغلاقه . أتفهم ؟

فأسرع چوان إلى سطح السفينة وأبلغ دلنكور رسالة القائد . فنظر دلنكور إلى من حوله مباهيًا وقال :

— ألم أخبركم أننى سوف أخيفه ؟

ثم سار نحو غرفة القائد وچوان يسير فى إثْره . ولما صار فى الغرفة قال له القائد :

— فكر يا دلنكور فيما أنت فاعلٌ قبلَ أن تكتبَ اسمك . فإن عودتنا قبل بلوغنا غايتنا عصيانٌ لأمر مليكنا وجبنٌ منا ، وفيها خيانة للأمانة التى عهد بها إلينا .

فأجاب دلنكور :

— إذا شئت أن تسمى عملى خيانةً وجبنًا فأنت وما تشاء .

فنظر إليه القائد لحظة في احتقار ، ثم قال له :

— إذن فوقع بخطك .

وأخذ الرجل القلم ، وكتب اسمه على الورقة ، ثم جرّ خطًّا طويلا تحت اسمه ، ورمى الورقة على المنْضَدة . فلم يكد يفعلُ ذلك حتى أغلق چوان الباب ، وسُمع دلنكور بعد ذلك يصرخ صرخةً مكتومةً ، ثم سمع صوت مشادة ومقاومة ، ثم عاد الصمت إلى الغرفة . وقال ڤاسكو :

— افتح الباب يا چوان .

ففتح چوان الباب وخرج منه پاليا وپيريز يحملان دلنكور مقيَّداً مكممًا .

فقال ڤاسكو : خذاه إلى الحدّاد ليضعَ عليه قيود الحديد . ثم نظر إلى چوان وقال له : فإذا ما فرغ الحداد من ذلك فاذهب إلى الڤاريز ، واصنع معه كما صنعت مع هذا .

ولما فرغ القائد من تقييد دلنكور والڤاريز والثلاثة الذين اختارهم ، صعد إلى سطح السفينة ومن ورائه جوان يحمل أسطرلابًا ، وپاليا وبيريز يحملان صندوقًا . فأخذ ڤاسكو الأسطرلاب وقذف به إلى البحر ، وفعل مثل ذلك ببوصلة كانت قريبة منه ، ثم فتح الصندوق وأخذ يخرج منه ما فيه من آلاتِ الرَّصْد ومعرفة الاتجاه ، وألقى بذلك كله فى البحر .

ثم رمى الصندوق نفسه بما بقىَ فيه من أوراق وخرائطَ . فما هى إلا لحظاتٌ حتى كان الموج قد طواها جميعًا فى جوفه ، أو حطمها قطعًا .

ثم قال لمن حوله هادئًا :

– لقد ألقيت فى السجن كلَّ من يعرف سيرَ البحر من بحارتى . فليس لكم الآن من يَدُلُّكم على الطريق غيرى. وقد رميتُ كل آلاتى وخرائطى فى البحر ، حتى لا يطمع أحد فى أن يستعين بشىء منها على الاهتداء فى المحيط الواسع . فأنا وحدى الذى يستطيع أن ينجوَ بكم من الهلاك . . . وسيعود هؤلاء الخونة إلى البرتغال فى قيودهم ، بعد أن أتمّ رحلتى ، ليلاقوا جزاءهم الذى يستحقونه . وأما أنا فلست فى حاجة إلى من يساعدنى ، ولا إلى من يهدينى سوى الله سبحانه وتعالى ، فهو دليلى وهو ربانى . هو الذى ينجّينا إن كنا أهلاً للنجاة ، وإلا فليكن أمره كما يشاء . فابتهلوا جميعًا إليه واسألوه العفو والرحمة ، ولا يأتينَّ أحدٌ منكم إلىّ بطلب العودة إلى الأرض ، فإنما الأرض أمامنا ، ونحن بعون الله ذاهبون إلى الهند .

فعلتْ صيحةٌ من البحارة ، امتزج فيها الخوف بالحزن ، والضراعة بالاعتذار ، وقد علموا جميعًا أنه لا أمل لهم بعد ذلك إلا فى القائد الصارم وحده .

وسارعوا إلى تلبيته فيما أمر ، وسارت السفينة حتى اقتربت من

أختيها ، فصاح دا جاما :

– لقد سجنتُ العصاةَ : رئيسَ البحارة ومقدَّمهم ، وكلَّ من كان معهم فى المؤامرة ، وألقيت بكل آلاتى وخرائطى إلى الماء ، وبذلك أصبحتْ سفينتى آمنةً ، وليفعلْ كلٌّ منكم ما يكفل سلامته . ثم وجَّه السفينة فى سبيلها ، ولم ينتظرْ من أحد جواباً . وسمع بحارة سان رفائيل وبريو ما قاله القائد فى صمت ، ثم انفجر منهم الصياح والعويل .

وأخذ بحارة كلِّ سفينة يتوسلون إلى ربانهم أن يشفعَ للمساجين عند القائد ، فوعدهم پاولو دا جاما وكويليو بأن يتحدثا إليه فى أمرهم بعد حين ، إذا ما هدأ غضبه .

وسار ڤاسكو فى سبيله شمالا حتى بلغ أرضاً بعد أيام . وكان هناك مصبُّ نهرٍ عظيم دخلت إليه السفن ، وكانت بريو أول ما دخل فيه .

ولما استقرَّ دنيس بعد حين على مكتبه أخذ يكتب فقال :

– « الأرض هنا وطيئة ، فيها بركٌ كثيرة ، وأشجارٌ ضخمة ، وأهلها سودٌ ، ولكنهم أقوياء الجسم ، والنساء منهم يخرقون شفاههم ويجعلون فيها حلقات من القصدير ، وهم جميعاً يلبسون ثياباً من القطن ، وفيهم ظرافةٌ ووداعة . وقد أتوْا إلينا بطعام كثير فى قواربهم ، وأتى إلينا رؤساؤهم ، وهم قوم تلوح عليهم الكبرياء ، ولم يعجبهم شىء مما أعطيناهم . وكان أحدهم يلبس قلنسوة من الحرير المطرَّز ، وآخر

يلبس قَلَنْسُوة من الحرير الأخضر . وقد استطاع فرنان أن يَفهم بعض لغتهم ، فقالوا له إنهم رأوا من قبل سفنًا مثل سفننا ، وقد سرّنا هذا ، فقد تكون تلك السفن أتيةً من الهند . وأقمنا فى تلك الأرض شهراً أصلحنا فيه السفن وطليناها من برّاها بالزفت ، ولكن كثيراً من البحارة لم يوافقهم الجوُّ فمرضوا ، وورِمت أيديهم وأقدامهم ولثاتهم . فلما رأى أهل البلاد ذلك أتوا إلينا بفاكهة ، فلما شرب المرضى عُصارتها خفّ عنهم المرض . وقد سمينا ذلك النهر الواسع الذى دخلنا فيه « نهر الرحمة » . وبقينا هناك إلى أواخر شهر فبراير من عام ١٤٩٨ . . .

وجاء پاولو دا جاما ونقولا كويليو إلى القائد ڤاسكو ، فسألوه أن يُطلِق سراح البحارة الذين سجنهم ، إذ أصابهم المرضُ وهدّد حياتهم . وكان القائد ڤاسكو يحبّ أخاه پاولو ، ولا يردُّ له طلبًا . فتردّد قليلا ثم تبسم وأمر بإطلاق سراحهم . ولما وقعت أعيننا على هؤلاء المساكين رأيناهم قد تغيروا ، فصاروا كأنهم أشباحٌ من عظامٍ . ونظر ڤاسكو إلى أخيه عندما رآهم وقال له :

– إننى إن كنت قد أتيت بهؤلاء لأفكَّ عنهم قيودهم ، فلستُ أفعل ذلك إلا طاعةً لأمرك ، وأنت أخى الأكبر سنًّا منى ، وعند هذا غمزتُ أخى شين غمزةً شديدة فى جنبه ، لأذكره بما ينبغى

للأخ نحو أخيه الأكبر ، فقد رأيته منذ حين قد تكبر هو وصاحبه جوان ، منذ كان لهما الفضل فى كشف مؤامرة البحارة .

ومضى القائد فى حديثه فقال متجهاً إلى السجناء :

— وأما أنتم فإنى أعفو عنكم ، معتذراً عنكم بأن الخوف هو الذى دفعكم إلى مؤامرتكم . وقد أنجانا الله من الخطر ، وهو الذى يحفظنا ، وسوفَ يهدينا إلى السبيل ، ويحرُسنا حتّى نبلغ أرض الهند ، سأفكّ عنكم القيود الآن ، ولكنى إذا عدتُ إلى الوطن ، بعد هذه الرحلة ، فسوف أعيد إليكم قيودكم لأعرضكم على مولانا الملك ، وأنتم مقيدون . ثم أطلبُ منه العفو لكم بعد ذلك لعلّه يمنّ به عليكم . هذا ما عزمت عليه ، ولن أغير عزمى .

ثم أمر بالسير ، وكان الهواء يهبّ علينا هبوبًا لطيفًا » .





٨

واستمر دنيس فى كتابته فقال :

« كان شين أولَ من رأى قلعًا أبيضَ عند الأفق ، على مسيرة عدة أيام . فقصدنا نحوه . وكان ذلك قاربًا صغيراً فيه سبعة أشخاص ؛ فلما اقتربنا منه ألقى ستة من الأشخاص بأنفسهم فى الماء ، وسبحوا إلى الشاطىء ، وبقىَ واحدٌ فى مكانه ، إذ كان لا يعرف السباحة . فنزل إليه بعض البحارة وأتوْا به إلى السفينة سان جبريل . وأرسل ڤاسكو إلى الرّبّان كويليو أن يأتىَ إليه ، فجاء ومعه شين ، واجتمعوا كلهم حول الرجل الأسمر ، وكان طويلا ، لونه مثل لون العاج القديم ،

ويلبس ثوبًا من القطن الأبيض ، وحول وسطه حزام من الحرير ، وكان يلفّ على كتفيه رداء ملونًا ، وعلى رأسه قلنسوةٌ من الحرير ، عليها نقشٌ من خيوط الذهب ، وفى أذنيه قرطان صغيران من الذهب فآنسه القائد ، وأعطاه كعكًا وزيتونًا ونبيذاً ، فأكل ، ولكنه لم يشرب النبيذ . ووهب له القائد ثوبًا طويلا لبسه ، فأعجبه ، وزال عنه الخوف ، وبدأ يأنس إلينا . ثم عرض عليه القائد شيئًا من البهار ، وأمر فرنان أن يسأله : هل عندهم مثله فى تلك الأرض ؟ فأجاب : إنه كثيرٌ عندهم . وقال إنه تاجر ، وإنه يقدر على أن يأتى لنا بما نشاء من الفرنفل والقرفة .

وسأله فرنان عن اسمه ، فكان اسمه جوين ؛ فعرض عليه القائد أن يسير مع السفن ليدُلها على طريق الهند ، فأجاب أنه تاجر ، لا يعرف شيئًا عن سير البحر ؛ ولكنّ القائد رأى أن يأخذه معه فى رحلته ، لعله يستخدمه فى بعض أغراضه . ولم نُقم طويلا فى تلك الأرض ، فأمر ڤاسكو بالسير نحو الشمال ، حتى بلغنا موضعًا قال لنا جوين إن اسمه « مزمبيق » ، وخرج الناس إلى الساحل ينظرون إلى السفن ، ويُشيرون إلى من فيها عجبًا . وكان على الساحل أربعُ سفن غريبة ، قال عنها جوين إنها من الهند . فأخذ فرنان يرقُص ويُطقطق بأصابعه ، وصاح بنقل النبأ إلى ڤاسكو .

وكانت تلك السفن صغيرةً ، لا تزيد على أن تكون قطعًا من الخشب قد رُبط بعضها إلى بعض بحبالٍ من الليف ؛ وكانت قلوعها من حصيرٍ مضفورٍ بالخوص . ومع هذا كانت محمَّلة بالبهار والجواهر والحرير .

فقال فاسكو :

ـ إذا كانت هذه السفن تسافر إلى الهند . فإن سفننا أقدرُ على الوصول إليها .

ثم خاطب أصحابه قائلا :

ـ علينا أن نتودّد إلى حاكم هذه الأرض . لعله يرضى أن يساعدنا على معرفة الطريق إلى الهند .

وأرسل جوين ليستطلعَ له خبرَ الناس . فما كاد يصل إلى البرّ حتى اجتمع حوله جمع كبيرٌ ، وجعلوا يتعلّقون به ، وسار معهم نحوَ القرية . ولما عاد بعد مدة طويلة كان يحمل إلينا فى قاربه فاكهةً ودجاجًا ومن جوز الهند واللحم هديّةً من شيخ مزمبيق .

ثم قال إن الشيخ سوف يأتى لزيارتنا عصر ذلك اليوم .

* * *

وأمر القائد بتزيين السفينة سان جبريل لاستقبال شيخ مزمبيق ، فرفعت فوقها الأعلام ، ومُسحت أرضُها وفُرشت عليها البُسُط ،

وأقيمت عليها مظلة علقت عليها شرائط من الحرير ، وضعت عليها الكراسىّ والموائد ، ولبس البحارة أحسن ثيابهم ، فظهروا فى أجمل زينةٍ ، وفى سلاحٍ كامل . وأمر القائد المرضَى أن يُقيموا فى غُرفهم ، فلا يظهروا أمامَ أهلِ تلك البلاد . وانتهز شين تلك الفرصة ، فلبس بذلته التى أهداها له زكوت ، وكان الخيَّاط صمويل قد صنعها واسعة ، فلم يجدْها شين ضيقةً عليه ، بعد أن نما فى مدة تلك الرحلة وزاد طولاً وعرضًا .

وقال له صاحبه جوان :

ــ أما إنك لوجيهٌ فى هذه الثياب !

فقال شين :

ــ ألستُ أشبه . . .

فقاطعه جوان قائلا :

ــ تُشبه كرنبة محشوّة . .

وشدّ شعر رأسه الأحمر مداعبًا ، فقال شين :

ــ الزم حدودَ الأدب ، فلا يَليق بى أن أصارعك وأنا فى هذه الثياب . والكرنبة ــ على كل حالٍ ــ خيرٌ من الفجلة .

وكان جوان يلبس سروالاً من الحرير الأخضر اللامع . فقال

— إنك تحسن التشبيه : فانظر إلى ڤيلوزو وقل لى كيف تراه ؟
فقال شين ضاحكًا :
— — إنه كالبنجرة المسلوقة !
وكان ڤيلوزو فى رداء أحمر ، ووجهُه يُشبه لونَ ردائه . وقد وضع على رأسه خوذةً من الصلب تبرقُ فى الشمس ، وعلى صدره دراعًا من النحاس اللامع .
ورأى ڤيلوزو الفتيَين وهما ينظران إليه ويضحكان فصاح بهما :
— إذا كنتما تضحكان منى فـ . . .
ولم يُتمّ كلماته لأنه سمع صوت القائد ڤاسكو يقول :
—قفوا فى أماكنكم أيها الرجال .
وكان القارِب قد أقبل يحمل الشيخَ وأصحابَه نحو السفينة . فأسرع كلٌّ إلى موضعه ، ووقف القائد مع أخيه پاولو والربّان نقولا كويليو بقرب الخيمة ،وهم يلبسون ثيابًا من القطيفة على أطرافها إطارٌ من الفَرْو ، ومن فوقها أردية مطرّزةٌ بالذهب ، وفى أقدامهم أخفافٌ من القطيفة .
ولما وصل الشيخ وأتباعه إلى السفينة نفخ البحارة فى الأبواق ، وسار ڤيلوزو وجماعة معه أمامهم إلى الخيمة ، حتى بلغوا المكان الذى فيه ڤاسكو وأخوه والربان كويليو .

وكان الشيخ رجلاً أبيضَ اللون طويل القامة نحيفًا ، فجعل ينظر فيمن حوله بعينيه السوداوين ، وقد وضع يُمناه على مقبض سيف مغروزٍ فى حزامه ، وكان على كتفيه رداءٌ أزرق مطرّزٌ بالذهب والفضة ، ويلبس صُدَرِيًّا من القطيفة الحمراء ، وسراويل بيضاء محبّكة ، وعلى رأسه عمامةٌ من حرير ملون . وسار هادئًا على مهل ، وأتباعه يسيرون من ورائه فى زينة تامةٍ ، بعضهم أبيض وبعضهم أسود ؛ وكان من بينهم عددٌ من الحشَم يضرّبون الطبول وينفخون فى الأبواق .

ونظر الشيخ حوله فى زَهْوٍ ، حتى وقعت عينه على جوين فقال له :

— قل للقائد من أين أتيت ؟ فإنى أرى معهم أشياء لم تقع عينى على مثلها من قبلُ .

فترجم جوين سؤاله إلى القائد ، ثم ترجم للشيخ الجواب ؛ فقال على لسان ڤاسكو :

— إننا من بلاد بعيدة اسمُها البرتغال ، ولها ملكٌ مسيحىٌّ عظيمٌ .

فقال الشيخ :

— رأيتكم بِيض الألوان فحسبتُ أنكم من الترك . وماذا تريدون من هذه البلاد ؟

فقال ڤاسكو :

— قد جئنا نطلب طريق الهند ، ولكنا لا نجدُ من يدلُّنا عليه .



فقال الشيخ :

— وإذا لم تجدوا الطريقَ فماذا أنتم فاعلون ؟

فأجاب ڤاسكو :

— نضرب فى قلب البحر حتى نبلغَ قصدنا أو نهلكَ دونَه . فإننا لا نقوى على أن نلقى ملكنا إذا عدنا إليه بغير أن نصلَ إلى الهند .

وعرض القائد على الشيخ بعضَ البهار من قرنفل وقرفة وفلفل وزنجبيل وقال له :

— لقد جئنا نطلب هذه الأشياءَ .

فضحك الشيخ قائلا :

— هذه الأشياءُ كثيرة عندنا . وعندى رجلٌ إذا ذهب معكم ملأ لكم السفن منها . ولكن ما الثمنُ الذى تدفعونه ؟

فقال ڤاسكو :

— عندنا ذهبٌ وفضةٌ .

فقال الشيخ :

— بالذهب والفضة تشترون ما تشاءون .

ثم نظر حوله وقال :

— مُرْ هؤلاء أن ينفخوا فى تلك الأبواق مرةً أخرى ، وأن يعرضوا علىَّ هذه الأقواسَ التى معهم وتلك السهام .

وجعل الشيخ يفحص ما قدمه البحارة له من السلاح باهتمام .

ثم ذهب بعد الاحتفال عائداً إلى الشاطىء ، ووعد أن يبعث إليهم فى اليوم التالى دليلا يهدى السفن إلى طريق الهند .

ولما ذهب نظر پاولو إلى أخيه قائلا :

— لا تأمَنْ هذا الرجل أو تصدقْه يا ڤاسكو ؟

فأجاب ڤاسكو :

— ومالى لا آمنه وهو على ما يلوحُ رجلٌ سليمٌ ؟!

فقال پاولو :

— أما أنا فلا آمنه إلا كما تأمنُ الشاةُ الذئبَ .

فقال ڤاسكو :

— وما الذى يدعوك إلى مثلِ هذا الظنّ ؟

فقال پاولو :

— ألم ترَ نظرته عند ما رأى الصليبَ الأحمر على الأعلام ؟ ألم ترَ شفتَيْه عندما نطقتَ باسم ملكنا المسيحىّ ؟ ألم تر كيف ابتسم عندما قلت إننا لا نجد من يهدينا إلى طريق الهند ؟ ألم تسمعْ ضحكته عندما عرضت عليه البهار ؟ لقد كانت مثلَ ضحكة الضَّبُع . ولا أظنُّه يرضَى أن نخطفَ تجارة الهند من بين يديه وأيدى قومه .

فقال ڤاسكو :

— إذنْ نجعل المدافعَ تخطَفها .

فأجاب پاولو :

— وعند ذلك يتحدّث الناس أننا قد أتينا إلى هذه الأرض لكى نضربَ ونخطَفَ ، كما يفعلُ لصوص البحر .

فسكت ڤاسكو حيناً ، ثم قال :

— أنت على الحق فيما تقول . ولا عجَبَ فى ذلك فإنك دائماً على الحقّ يا أخى . أترى أن نذهبَ من هنا لنبحث فى مكانٍ آخرَ عن دليل ؟

فأجاب پاولو :

— أرسل « جوين » إلى الشاطئ غداً ليشترى لنا ما نحتاج إليه من الطعام . ولعله إذا ذهب إلى هناك استطاع أن يسمعَ لنا شيئاً عن ذلك الشيخ وعما ينويه لنا .

ولكن علينا أن نحترس فى هذه الليلة لأنفسنا فلا ندع فرصةً ، لمن أراد أن يأخذنا على غِرّة .



٩

ذهب جوين إلى شيخ مزمبيق ، ومعه شين، يحملان هدية من القائد ڤاسكو . وسمع شين حديث الشيخ بالعربية وفهم منه ألفاظًا مما تعلمه من تلك اللغة، وخُيِّل إليه أنّ الرجل لا يرتاح إلى أولئك الأغراب، الذين أتَوْا إلى بلاده ولا يودّ أن يمهد لهم سبيل الهند .

على أن الشيخ مع ذلك بعث من عنده إلى القائد دليلين من الزنج ، ليساعداه على معرفة طريقه فى البحر .

فلما جاء الدليلان إلى القائد، سألهما عن موارد الماء العذب فى ذلك الشاطىء ، ليأخذ منها ما يحتاج إليه قبل السفر ، فأبديا استعدادهما

لخدمته . فبعث معهما القائدُ صاحبه كويليو رُبان السفينة بريو ، فى جماعة من البحارة ، وأمرهم أن يملأوا كل أحواض الماء فى السفن الثلاث فأخذوا قاربًا ، وساروا فى أول الليل ، والدليلان يوجهانهم إلى مواضع المياه .

ولكنّ السير طال بهم ، وكلما سأل الربان الدليلين عن آخر السير أشارا إلى الأمام . فدبّ الشكُّ فى نفس كويليو ، وخشى أن يكون فى الأمر مَكيدةٌ ، فإن الدليلين قد يدخلان بالقارب إلى شِعاب الشاطئْ ، أو ضحاضح الماء ، فينغرز فى الرمال ، ولا يستطيع من فيه النجاة . وما كاد يفكر فى هذا حتّى تحقّق ظنه ، وشعر بالقارب يحتكّ برمال القاع . فبادر إلى تدارك الأمر ، وأمر بالارتداد سريعًا إلى ظهر البحر ، وجعل البحارة يجذفون تجذيفًا شديداً ، حتّى بلغوا وسط الخليج الذى كانوا فيه . وكان نور الصباح قد لاح عند ذلك ، فرأى كويليو أن ماء البحر يهبط مسرعًا ويقلُّ عُمقه ، فأدرك أن الجزْر قد بدأ ، وانكشفت له حيلةُ الدليلين ، فإنهما كانا يريدان أن يُطيلا مدّة السير ، حتّى يهبط ماء البحر فى الجزر ، فيهوى القارب على رمال القاع ، ويصبح كل من فيه تحت رحمة الشيخ يتخذهم أسْرَى .

وصاح البحارة فى حنقٍ :

— لا بدّ من قتل هذين الخائنين .

فلما سمع الدليلان أصواتهم ، عرفوا ما يُراد بهم ؛ فألقى أحدهم بنفسه فى الماء ، وغاص فيه ، فصاح أحد البحارة :

— اضربوه بالسهم إذا أخرج رأسه من الماء . ولكنّ الزنجىَّ أطال الغَوْص ، فلم يظهر على السطح حتى كان أبعدَ من مَرمى القوس .

وكان على الشاطئ القريب عدد عظيمٌ من السود ، فخشىَ كويليو أن يسير بالقارب نحو البر ، وراء الدليل الهارب ، وأمر بالعودة إلى حيث كانت السفن راسيةً .

ولم يُقم طويلا بعد ذلك فى مزمبيق ، وأمر بالسير نحو الشمال ، يتنقل من مكان إلى مكان ، حتى وصل إلى « ملندة » ؛ وجلس دنيس مرة أخرى يكتب فى أوراقه :

« هذه مدينة طيبة ، فيها بيوتٌ عالية بيضاء ، وتَحُفُّ بها بساتينُ من أشجار البرتقال الخضراء ، وقد بعث إلينا ملك البلد رسولا يُرحّب بنا عند مَقدمنا ، وأظهر استعداده لمساعدتنا ، فبعثنى القائد إليه بهدية . وجعل جوين فى صحبتى ، وكنت أحدث نفسى فى أثناء السير أننى سوف أجد فى سيرى خطراً ولكنى لم أجد فى ذلك اليوم شرًّا .

وكان الصباح جميلا ، والهواء منعشًا ، وكان السير فوق الأرض اليابسة

أحبّ إلىّ بعد طول سفر البحر . ودخلنا قصر الملك ، فرأيناه جالساً على عرش من البرُنز ، فوق وسائد من الحرير ، وعلى رأسه مظلةٌ من الحرير الأحمر . وكان من حول عرشه حُرّاسٌ ، فى أيديهم السيوف ، واثنان منهم يحملان بُوقَين عجيبين مقوسين من العاج . طولُ كل منهما مثل طول الرجل ، وعليهما نقوش وزخارف . وكان الملك يلبَس ثياباً ثمينة من الحرير ، وعلى رأسه عمامة مجوهرة . ولما قدمنا له الهدية سُرّ منها ، وخلع علينا ثوبين من الحرير المطرَّز بالذهب ، وأرسل معى خاتماً جميلا ، له فَصٌّ أزرق بديعٌ ، ليكون هدية إلى القائد . ثم أسل وراءنا — بعد عودتنا — هدية أخرى ؛ من طعام ولحم وسمن وأرز ودقيق ودجاج محشو بالأرز ، وفاكهة من التين والقصب وجوز الهند . و وعد بأن يرسل معنا دليلا يسير بنا إلى الهند .

ورأينا فى ميناء ملندة عدداً كبيراً من السفن ، عليها بحارة من الهندوس ، وهم قوم سُمر اللون ، عُراة الأبدان ، لا يسترهم إلا ثوب قصير عند وسطهم ، ولهم شعرٌ طويلٌ مضفورٌ ، يشبه شعر النساء . فسألت جوين عن تلك السفن ، فإذا هى آتية من بلاد الهند . وكان عجبى عظيماً أن تستطيع تلك السفن الصغيرة أن تخترق البحار الواسعة ، من الهند إلى أفريقية ، مع شدّة العواصف . ولما أراد القائد أن يسافر بعث الملك معه دليلا من الهندوس ، ونصحه أن ينتظر هبوبَ الرياح

الموسمية . ولهذه الرياح حديثٌ عجيبٌ فهى تهبّ من ناحية الهند إذا حلّ الخريف فى أكتوبر ، فتحمل معها المطر إلى ساحل أفريقية مدة الخريف والشتاء ، حتى إذا طلع الربيع فى شهر أبريل ، ارتدّت تهبّ من ناحية أفريقية إلى ساحل الهند ، فتساعد السفن فى سفرها إلى تلك البلاد .

وقد كان أمرُ هذه الرياح غريبًا لم نسمع به قبلَ ذلك ، فكنا فى سفرنا نحسّ الرياح تهبّ فى وجوهنا ، ولا نعرف سرّ هبوبها . ولو عرفنا حقيقتها فى أول رحلتنا ، لتجنّبنا مصاعبَ كثيرة مما تجشمناه فى سفرنا .

وكانت سفن الهنود راسية على شاطئ ملندة ، تنتظر هبوب تلك الرياح ، فانتظرنا كذلك ، حتى بدأت تهب . ثم بدأنا سيرنا ، وكان ذلك فى ٢٤ أبريل سنة ١٤٩٨ » .

وهنا انقطع دنيس عن الكتابة فجأةً ، وكان قد بدأ صفحةً جديدة ، كتب فى أعلاها تاريخ بدْءِ السفر ، وأخذ يرسُم بعد ذلك صورةَ زنجىّ يحمل بوقًا طويلاً من العاج ، ولكنه لم يتم رسمه .

وكان أسفلُ الصفحة مطموسًا عليه نقطة سوداء كبيرة ، حيث سقط القلم من يده . . .



١٠

اختفت الشمس تحت الأفق ، وهبط الظلام على البحر سريعًا ، فلَفَّه فى سواده . وكانت السفن تسير مع الرياح الشديدة ، متجهة نحوَ الشرق إلى ساحل الهند .

وكان شين يسير على سطح السفينة بريو ، يحمل إبريقَ نبيذ لعشاء الرُّبان كويليو ، فنظر حوله يقلب بصره فى السماء ، ثم وثب وَثبةً عالية ، وصاح بأعلى صوته :

— النجم القطبى ! النجم القطبى !

— فصاح الربان قائلا :

– ماذا أصابك أيها المجنون ؟

فأجاب شين صائحًا :

– النجم القطبي : هذا نجمُ الشمال يظهر فوق الأفق مرة أخرى ، فنحن الآن شمال خط الاستواء .

ثم أخذ يرقُص رافعًا إبريق النبيذ الأحمر فوق رأسه فسقطت منه السدادة واندلق ما فيه عليه فاقترب منه كويليو ناظراً إلى النجم ، وقال له باسمًا :

– إنك والحق ربان ماهر يا شين . ولكن ما بالك تحملق فى السماء وتنسى عشائى ؟ ! اذهب فجهز لى العشاء ، وإلا أكلتك أنت ونجمك وهذا النبيذ الذى اندلق عليك ! اجْر . . .

فجرى شين ليُعِدّ عشاء الربان ، ولكنه ذهب أولا إلى غرفة أخيه دنيس ، ليحمل إليه نبأ ظهور النجم القطبي .

وكان المصباح يتطوّح من سقف غرفة دنيس ، ونوره يقع على الأركان المظلمة ضعيفًا ، لا تكاد العين تبصر فيها شيئًا فدسّ الفتى بصره فى الغرفة ، فلمح شبحًا مائلا برأسه على المنضدة ، كأنه نائم . ولكن دنيس لم يكن نائمًا ، فرفع رأسه عن الصحيفة التى كان يرسم فيها ويكتب ، ونظر إلى أخيه نظرة تائهة ، ثم نظر إلى الصحيفة ، وكانت عليها بقعةٌ من الحبر ، وبقعةٌ أخرى . . . فصاح شين :

— ما هذا يا دنيس ؟ إن برأسك جرحًا ، وهذا الدمُ يلوّث المنضدة .

فقال دنيس بصوت خافت :

— كنت هنا أكتب وأرسم ، ولم أدْر ماذا حدث .

فوضع شين الإبريق على الأرض ، وأخذ فوطة نظيفة بللها بالماء ، وغسل الدم عن رأس أخيه وربطه ، ثم قال له :

— عليك أن ترقُدَ ولا تتحرّك .

ثم نقله إلى فراشه ، ووقف ينظر إليه فى قلق . وكان وجهُ دنيس مصفرًّا ، يزيده نورُ المصباح صُفرة ، حتى كأنه صفحةٌ بيضاء . وحس شين نبضَه فوجده بطيئًا ضعيفًا . وما كاد دنيس يرقُد حتى أخذ ينطق بألفاظ لا يُفهم لها معنى ، فصار حينًا ينادى صائحًا : « القطة » ، وحينًا ينادى قائلا : « المربّى ! » فلم يفهم شين معنى هذا ؛ ورأى عند ذلك قطة قد أتتْ إلى جانبه ، وأخذت تقرأ ، وتحرّك ذيلها ، وتتمسح به ، ثم وثبت إلى فراش دنيس وجلست .

ولم يقدر شين على مفارقة أخيه ، لأنه ظنّ أن عدوًّا قد ضربه تلك الضربة ، وقد يعود ليقضى عليه إن هو تركه فى الغرفة وحده . وذهب إلى سلاح معلق فوق الحائط ، فأخذ منه سيفًا ، ليدافع عن نفسه وعن أخيه إذا دعا الأمرُ إلى الدفاع . وعند ذلك مالت السفينة فى

سيرها فتدحرج شيءٌ على الأرض ، حتى اصطدم برجله ، فمال ليراه ، فإذا هو وعاءٌ مكسور ، فيه مربى تخثرُ منه . وكان إلى جانب الوعاء طبق فى حرفه نقطةٌ سوداء ، فتأملها شين ولمسها ، فوجدها لزجَةً ، ولكنها لم تكن مربى بل كانت من دم متجمد .

وفيما كان شين يفكر ، ويخمن ماذا عساه قد حدث لأخيه ، سمع صوتَ أقدام ، فوقف إلى جانب الحائط ، ورفع يده بالسيف مستعداً ، ولكنه سمع صوت الربان ينادى :

ـ ماذا فعلت بعشائى أيها المنجمُ الأحمقُ ؟

ودخل كويليو إلى الغرفة ، فرأى شين وفى يده السيف ، ورأى دنيس راقداً على سريره ، أصفر الوجه ، غائبًا عن الوَعْى ، والقطة إلى جانبه . فنظر حوله فى دهشةٍ ، وقال :

ـ ما هذا ؟

فأخذ شين يحكى له ما رأى ثم قال :

ـ لعلها ثورةٌ أخرى يا سيدى الربان .

فقال كويليو :

ـ وما يكون سبب هذه الثورة الآن ، ونحن فى بحر هادئ ، والريح طيبةٌ ، والهند قريبة ؟ وإذا كانت ثورة ، فما دخْل دنيس فيها ، وهو أودَع من فى هذه السفينة وأحبهم إلى الجميع ؟

فقال شين :

ــ لا أدرى . ولكنى لا أستبعد أن يكون بعض البحارة قد أساء به الظنّ فحسِب أنه قد نمّ عليهم فى الثورة الأولى وفضح مؤامرتهم .

فسكت كويليو لحظة ثم قال :

ــ هل لى أن أثِقَ فى شجاعتك ؟

فقال شين :

ــ لست أدرى يا سيدى ، ولكنى أقدم على كل خطر فى سبيل دنيس .

فقال كويليو :

ــ إذن تذهب إلى ظهر السفينة ، لتعدّ عشائى . وصَفِّرْ فى أثناء سيرك ، ثم غنّ إذا استطعت ، حتى لا يفهم أحد أن شيئًا قد حدث . ثم أحضر عشائى ، وانظرْ حولك ، فإذا رأيت شيئًا تشكُّ فيه فأبلغه إلىّ .

ثم سمّى له بعض البحارة الذين يثق فيهم ، وأمره أن يدعوهم إليه .

فذهب شين ، وحاول أن يصفر ويغنى ، ولكنه لم يقدر على النطق ، واختنق صوته . فتجلد ومضى فى سبيله هادئًا حتى وصل إلى مكان البحارة ، فدعا الذين طلبهم الربان ، وأمرهم أن يذهبوا إليه . ثم ذهب إلى المطبَخ ، فقال له الطباخ :

— أين كنت كل هذه المدة ؟ إنى أنتظر إلى جانب الموقد حتى اشتعلَ جسمى من الحرّ وليس هنا من يساعدنى إلا هذا الأسود الأبكم . وكان إلى جانبه الزنجىُّ ، أحد الدليلين الذى لم يستطع الهربَ فى مزمبيق . فقال له شين :

— وماذا يفعل هذا هنا ؟

فقال الطباخ :

— إنه لا يفعل شيئًا سوى أن يجلس هنا . فقد مات مساعدى بمرض الإسقربوط ، فلم يجد الربّان إلا هذا الأسود ليحلّ محله . فحلّ قيوده وجعله مساعدى ولكنه عـالةٌ عاجز ، لا همّ له إلا أن يأكل ما تصل إليه يده ، فهو يلعق من كل شىء ، ويلحس ما بقى فى الأوانى ، ويحبُّ الحلوى ، فإذا لمح منها شيئًا لم يترك منه فضلة . خذ هذا العشاء ، واذهب به إلى الربان ، فهو كل ما بقى عندى . قل له إن هذا كل ما أبقاه هذا الزنجى . اجرِ .

فأخذ شين الأكل ، وأسرع به إلى الربان ، وكان فى الغرفة يتحدّث مع بحارته الأوفياء .

ورتّب كويليو فى تلك الليلة جماعة من الأمناء يتناوبون الحراسة على باب غرفة دنيس ، وانطرح هو على كرسىّ فنام عليه ، ورقد شين على الأرض ، ينظر إلى نور المصباح إذ يتحرك على وجه أخيه ،

فقضَى أكثر الليل ساهداً لم ينم إلا قليلا .

وتحرّك دنيس فى الصباح ، فصاح شين قائلا :

ــ كيف أنت يا ديكَ الصباح العزيز ؟

فجلس دنيس ، ورفع يده يتحسَّس الرباطَ الذى حول رأسه ، ثم قال :

ــ ما هذا الذى على رأسى ؟ ولِمَ أرى كلّ هؤلاء هنا ؟

فصاح شين :

ــ أنزل يَدك . ونمْ ولا تتحرَّك .

ثم نادى الربان كويليو فوثب قائمًا ، وكان شين يُمسك بيَدىْ أخيه يمنعه من مَسِّ جرحه ، ودنيس يضحك ضحكًا ضعيفًا .

فقال كويليو :

ــ كيف أصبحت يا دنيس ؟

فقال دنيس :

ــ أضعف من قُطَيطَة يا سيدى ، إنى أذكر الآن ما حدث . لستَ أدرى ما الذى كان يريده هذا اللصُّ الخبيث ، ولا ما ذلك الذى خبَطنى به .

فصاح كويليو :

ــ ألم يكن عدواً هو الذى خبطك ؟

فتبسم دنيس قائلا :

— لا لم يكن فى الأمر عداوة . بل هى المرَبَّى .

فقال شين :

— لقد كنتَ تصيح فى غيبوبتك قائلا : « المربَّى ! »

فقال دنيس :

— كنت أكتبُ فى أوراق ، حتى كدت أفرغُ من كتابتى ، وأخذت أرسم صورةَ بوق عاجىّ ، من هذين اللذين رأيتهما عند ملك ملندة ، ثم أقبل ظلام الليل ، فوضعت القلم وقمت فأوقدت المصباح ، وكانت القطة على كتفى ، كعادتها كلما جلستُ للكتابة . وعند ذلك دخل شخصٌ إلى الغرفة ، وهو هذا الأسود الذى أخذناه من مزمبيق ، فذهب إلى خِزانة الطعام ، فأخذ منها بَرنيَّة المربَّى . وهمّ بدسّ يده فيها ، فوثبت إليه لأنزعها منه ، فسقطت ووقعت على قدمه ، فصرخَ ولعن ، وكنت لا أريد أن أوذيَه إلا بكلمة توبيخ . ولكنه خاف فحمله الفَزَعُ على أن يتناول طبقًا يريد أن يضربنى به ، فهبت إليه القطة ، وهبشته فى وجهه ، وأظنه خبطنى بالطبق عند ذلك فى رأسى ، فلم أع بعد هذا شيئًا .

فصاح كويليو :

— سأقذف به إلى البحر ، وأجعلُ فى قدميه برنيتان من الرصاص .

فقال دنيس :

ـ لا تفعلْ أيها الربان ، فإني لا أظنُّ أنه أراد بي شرًّا ، ولولا أن القطة هبشته لما ضربني . ولا أحسبه رأى وجهي ، ولا عرف من أنا ، فإنه كان صاحبي ، وكنت آلفُه ، وكان يعلمني لغتَه . بل إني أنا الذي رجوتك أن تحُل قيودَه .

فصاح كويليو :

ـ أسرعْ يا فرنان وأنت يا سانكو . أسرعا إلى هذا الأسود فأحضراه إليّ هنا .

وكان الزنجيّ قصيراً سميناً بنيّ اللون ، وكان في وجهه خَدْشٌ أحمر ، ووقف يرتَعِد بين البحارين اللذين أتيا به .

فقال كويليو لفرنان :

ـ اسأله : لم أراد أن يقتُل السيد دنيس ؟

فلما فهم الرجل السؤال اندفع يتكلم مسرعًا ، ويهزّ رأسه هزًّا عنيفًا .

وقال فرنان :

ـ إنه يقول إن دنيس أبوه ، وهو لا يمكن أن يرفع يَده عليه . وهو يقول إنه لم يقصد به أذى وإلا كان مستحقًّا أن يُنزَع شعرُه بملقاط من الحديد المحمّى .

فقال كويليو :

— هذا لا يضرّه شيئًا لأنه أصلع !

واستمرّ الأسود يتكلم مسرعًا ، فقال فرنان :

— هو يقول إن الشيطان هو الذى وسوس له بسرقة المربى . ثم وسوس له بضرب دنيس . وكانت غلطة منه أن يطيع الشيطان .

فقال دنيس للربان :

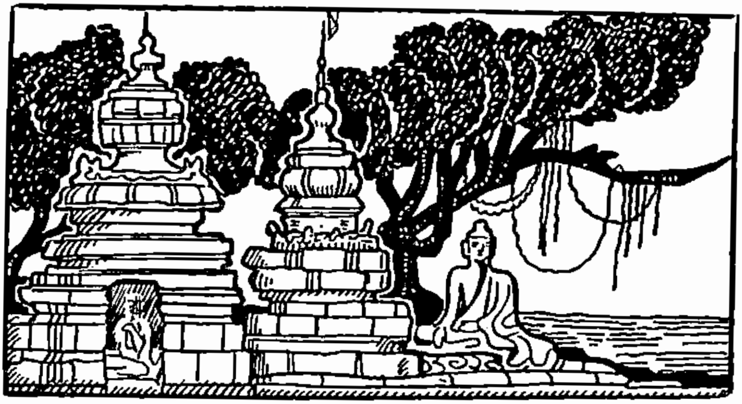
— أرجوك يا سيدى أن تعفوَ عنه . وأنا واثق أنه لن يفعل سوءاً بعد هذا .

فقال كويليو :

— قل له يا فرنان إنه كان يستحقّ القتل ، ولكن دنيس عفا عنه ، ولهذا قد صار منذ الآن عبداً له يدينُ له بالحياة ، فعليه أن يطيعه فى كلّ أمره ويتفانى فى خدمته . حذّرْه ألا يقترب مرة أخرى من خزانة الطعام ، وإلا فإنى سوف أقذفُ به إلى البحر ، لكى يعود إلى بلده عائمًا . قل له ليذهب الآن إلى المطبخ ، ليجهز لسيده طعامه . قل له أسرعْ يا ذئبَ المربى !

فلما انتهى فرنان من ترجمته ، أسرع الأسود خارجًا يُهَرْوِل ، فضحك الربان وَمنْ حوله ، ثم قال يخاطب شين :

— وأنت يا شين أسرع فجهز لى إفطارى ، فقد فتحتْ هذه الفكاهة نفسى للطعام .



١١

شُفِىَ دنيس بعد قليل ، ولكنّ الأيام مرّت طويلة ولم تظهر بعدُ أرضُ الهند . مرّ ثلاثةٌ وعشرون يومًا طوالا ، وأخذ البحارة يمرَضون بالإسقربوط ، فتتورّم لثاتهم وتسقطَ أسنانهم وخُيل إليهم أن سفرَ البحر يمتدّ بهم إلى غير نهاية . ثم طلعت الشمس يومًا ، وظهر على الأفق ضباب يشبه السحابة الكثيفة ، وقال الدليل الهندىّ :

— هذه هى الهندُ يا سيدى القائد .

ووقف ڤاسكو ينظر إلى السحابة البعيدة فى خشوع ، ثم صاح بالبحارة :

– هذه هى الهندُ ، فاشكروا الله الذى هدانا إليها . ثم ركَع يُصلى ، وركع البحارة من حوله فى صمت عميق ، يُصلون ويمسحون الدموع عن عيونهم .

ثم قام ڤاسكو وقال :

– بشِّروا أصحابنا فى السفن الأخرى ، فإنهم لم يعلموا أننا قد وصلنا .

فصعِد جوان إلى أعلى الصارى ، وصاح بأعلى صوته :

– الهند ! أرض الهند !

وأخذ يلوّح بقَلَنْسُوتِه الحمراء فى الهواء .

وسمع شين وهو على السفينة بريو صوتَ جوان ، فأخذ يرقُص ويقفز على ظهر السفينة حتى سمعه أسودُ مزمبيق وفرنان ، فخرجا إليه يرقصان معه ، وكلٌّ منهما يضرب الآخر على ظهره ؛ ثم خرج الطباخ وسائر البحارة ، بعضهم فى إثْر بعض ، ينظرون إلى الشاطئ البعيد . وصعد شين إلى قمة الصارى ليعلنَ الخبر إلى السفينة الثالثة سان رفائيل .

وعند ذلك انطلق صوتُ الرعد عاليًا ،وهطلت الأمطار من سحابة سوداء ، فبلَّت كلّ من على السفن الثلاث .

وفى عصر ذلك اليوم ، ألقت السفن أناجرها فى مياه « قلقوط » ،

على ساحل الهند ، وكان ذلك فى أواخر شهر مايو سنة ١٤٩٨ . وكان أهل المدينة سمر الألوان يحلقون رؤوسهم ، فلا يتركون فيها إلا قصّة فى وسطها يضفرونها . ولهم لحىً وشوارب طويلة ، ويضعون فى آذانهم أقراطًا من الذهب ، ولا يلبسون من الثياب إلا أرهاطًا تستر أوساطهم . وأما النساء فقصيراتُ القامة ، ليس على وجوههن مسحة من جمال ، ويلبسن عقوداً من الجواهر حول أعناقهن ، وأساورَ من الذهب فى أيديهن ، وخواتم لها فصوص من الجواهر فى أصابعهن .

وكان الأمير غائبًا عن المدينة، ويسمّونه « الزيمران » ، وكان وزيرُه يحكُم المدينةَ فى غيابه .

فأرسل القائد إلى الوزير رسولا يعلمه بحضوره ، وأنه يطلب الإذن فى مقابلته .

وجاء الزيمران فى اليوم التالى ، فأرسل يدعو القائد لمقابلته ، فطلب منه ڤاسكو أن يرسل إليه رهائن ليضمنَ سلامته ، فبعث إليه ثلاثة من الأمراء ، أنزلهم القائد فى سفينته ، ثم أخذ معه ثلاثة عشرَ رجلا ، ونزلوا إلى المدينة ، وكان فيهم شين وأخوه دنيس وجوان كويليو . وأراد پاولو دا جاما وكويليو أن يمنعا القائد من النزول بنفسه خوفًا عليه ، ولكنه أصر على الذهاب ، وأمر أخاه إذا حدث له حادثٌ فى المدينة ، أن يعود بالسفن إلى البرتغال ليُبلغ نبأ النجاح إلى الملك .



وجاء الوزير ليستقبل القائد ڤاسكو ومن معه على الشاطئ ، وأعدَّ محفـَّةً لركوبه ، وخرج أهل المدينة كباراً وصغاراً ، رجالا ونساءً ، لينظروا إلى الأغراب الذين جاءوا إليهم من وراء البحار .

وسار الجميع فى موكب عظيم ، حتى بلغوا قصر الأمير ، وكان مُضطجعًا على وسادة من القطيفة الخضراء ، وهو أسمرُ اللون ، لا تسترُ الثياب إلا نصفَ جسمه ، وعلى ذراعيه أساورُ ضخمةٌ من الذهب المرصَّع بالجواهر ، وتتدلى منه ألماسات كبيرة ، تتلألأ بنور خاطف وكان حول عنقه عقدٌ مزدوجٌ ، يصلُ إلى وسطه ، وكان من لآلىء كبيرة يبلغ كل منها حجم البندقة . وكان يتدلى من رقبته فرعُ قلادة أخرى من فرائد الزبرجد والياقوت . ووقف من ورائه حاجبٌ يحمل درعًا حمراء ، عليها حلية من الذهب والألماس ،ومن حوله حُرَّاسٌ يحملون سلاحًا محلى كذلك بالذهب والجواهر .

وكانت من فوق الأمير قبةٌ ذهبية ، وعلى مقربة منه وعاءٌ كبيرٌ من الذهب ، فيه نوع من الخوخ يمضغه ، ويرمى مُصاصته فى كأس من الذهب ، عند يده اليسرى .

وأمر الزيمران ضيوفه بالجلوس ، فجلسوا على مصطبة حجريَّة ، وقُدمت إليهم فواكه من الموز والبطيخ ، ثم قام ودعا ڤاسكو ليذهب معه إلى قاعةٍ أخرى . وكان يخاطبه على لسان ترجمانه ، فينقل الترجمان

قوله إلى فرنان وينقل فرنان القول إلى القائد .

واضطجع الأمير على وسادة فى الغرفة الأخرى ، وسأل الترجمان عما أتى بڤاسكو وأصحابه إلى بلاده ، فأخذ ڤاسكو يصف له البرتغال وملكها ، وقال : إن الملك منويل قد بعث به إلى الهند سفيراً ، ليطلبَ صداقة أميرها . فقال له الأمير إنه سعيد أن يكون لملك البرتغال صديقاً . وأباح له الشراء والبيع فى المدينة كما يشاء . وهكذا تردَّدَ الحديث بينهما إلى أن مضى صدر من الليل ، وأمر الزيمران أن ينزل القائد وأصحابه تلك الليلة ضيوفاً فى قصره . فخرجوا إلى دار أعِدَّت لهم فيها بُسُطٌ مفروشة ، ومصابيح مضيئة ، فقضوا الليلة هناك فى ضيافة كريمة . فلما كان اليوم التالى أعدّ القائد هدية إلى الأمير ، فلما أراد أن يبعثها إليه ، جاء الوزير فنظر إليها ، فلم تعجبه ،واستخفَّ بها قائلا :

إنها لا تَليقُ بمقام سيده السامى ، فما ينبغى أن يُهْدَى سوى الذهب إلى الملوك .

فقال ڤاسكو :

— إذا لم تحب أن توصلها إلى الأمير ذهبت أنا إليه ، فعرضت الأمر عليه .

فقال الوزير :

— إذن فابق هنا حتّى أعود إليك فأذهب معك إلى القصر .

ثم خرج وغاب طول يومه ، فلم يعد إلا فى اليوم التالى وأخذ ڤاسكو معه ليستأذن له فى المثول بين يدى الأمير ، فبقى القائد أربع ساعات ينتظر فى حرّ الشمس حتّى أذن له .

فلما مثل بين يدى الأمير اتجه إليه فى جَفاء فقال له :

— عُدْ إلى سفنك أنت ورجالك، واذهبوا إلى مَرسَى السفن فى « پدرانى ». ولك أن تُنزِل هناك بضاعتك فتبيعَ منها ما تشاء وتشترى ما تريدُ .

فخرج ڤاسكو وطلب من الوزير أن يأتىَ له بقارب يعود به إلى سفينته ، فقال له :

— لقد مضى النهار ،ولا بأس عليكم إذا قضيتم الليلةَ عندى . فلم يجدْ ڤاسكو بدًّا من الذهاب إلى منزل الوزير .

ولما طلع الصباح جاء الوزير وأعاد على ڤاسكو أمْرَ مولاه وطلب منه أن يبعث أمره إلى السفن بأن تذهب إلى المرسى عند پدرانى .

فقال ڤاسكو :

— لقد أمرت سفنى من قبلُ أن تبقى فى مكانها . فإذا بعثت إلى أصحابى آمرهم بالسير إلى المرسى ظنوا أننى هنا فى يدكم أسير . وقد أمرتهم إذا حدث بى حادث أن يسافروا ولا ينتظرونى .

فقال الوزير :

— إذن فاعلم أنك لن تذهب إلى سفنك .

فقال ڤاسكو :

— لقد أمرنى الأمير أن أعودَ إلى سفنى ، فإذا أنت عَصيتَ أمره ذهبت أنا إليه لأطلعه على سُوءِ فعلك .

وعند ذلك سمع شين نداءً من الخلف يقول :

— أغلقوا الأبواب !

وخطر له عند ذلك خاطرٌ سريعٌ ، فإن القائد وأصحابه إذا سجنوا جميعًا ، فلن يعلم إخوانهم بما أصابهم ، وقد تضطرب أمورهم أو يعودون سراعًا إلى البرتغال ، امتثالا لوصية القائد لأخيه ، قبل نزوله إلى الشاطىء ، وعزم على أن يُسرع فينجوَ بنفسه ، ليحاول العودة إلى أصحابه فى السفن ، ويقصّ عليهم ما حدث . فما كاد يرى الحراس يبادرون إلى إغلاق الأبواب ، حتى وثب نحو باب صغير فخرج منه . وكان يلبس ثيابًا شرقية اشتراها من سوق ملندة ، فلم يلحظ أحد خروجه . وما كاد ينجو بنفسه حتى سمع أصواتَ الأبواب وهى تُقْفَل ، وأصواتَ قضبانِ الحديد وهى تقع فى كلاليبها .

وسار شين فى ظل الجدران حذِراً يترقّب ، حتى خرج إلى الفضاء ، ثم انسلّ إلى غابة قريبة فتوارى بها ، وكان الهواء فيها يخنقُ الأنفاس ، بما فيه من حرّ وبخار ماء ، ولكنه تجلد حتى بلغ نهراً صغيراً ،

تحيط به البرك ، وكانت رؤوس التماسيح تظهر على سطحه ، كأنها كتلٌ ضخمة من جذوع الشجر .

فسار على الشاطئ يتلفت حوله من الخوف ، حتى بلغ مكانـًا قريبـًا من مصبِّ النهر ، ورأى هناك صخرةً عاليةً ، فصعد فوقها ونظر إلى البحر ، والسفنُ راسيةٌ به على مسافة قريبة . فزحف بين الأحجار حتى لا يراه أحد ؛ وكان فى أشدّ الحيرة، لا يدرى كيف يصل إلى السفن ، والناس منتشرون على الشاطئ ؛ ولو رآه أحدهم لضاع أمله فى النجاة .

فلم يكن له مفرٌّ من البقاء فى موضعه ، حتى يأتى الليل ، آملا أن يقطع البحر سباحة ، حتى يصل إلى أصحابه . فاختار مكانـًا خفيـًّا ، وجلس فيه ينتظر ؛ وكان يرى البحارة يسيرون على سطوح السفن ، ويسمع أغانيهم وهم يعملون ولا يخطر ببالهم أن قائدهم وأصحابه سجناء فى بيت الوزير .

وكانت أقرب السفن إليه لا تبعد عن الشاطئ بأكثر من رُبع ميل ، ولهذا عزم على أن يقطعَ البحر إليها سباحة ، إذا ما ستره الظلام . وكان لم يأكلْ شيئـًا منذ الليلة السابقة ، وكان العطش أشدّ عليه من الجوع ، ولكن الله لطف به ، فنزلت عليه سحَّةٌ من المطر فجأة ، كما يحدث عادة فى الهند ، فى مثل ذلك الفصل . فمدّ رأسه

يستقبل المطر فى فمه وخلع ثيابه ليغسلَ به جسمَه . ولما تجمع الماء فى بطون الصخر ، مال عليه وأخذ يلعقه بلسانه .

وما زال فى مكانه حتى غربت الشمس ، وهبَط الظلام على الأرض سريعًا ، فنزل إلى البحر ، فسبح حتى بلغ السفينة بريو وتعلق بسلاسل الأنجر ، حتى صعد إليها ؛ ولم يُبالِ ما أصابه من خدوش فى ساقيْه ويديْه وبلغ سطح السفينة وهو يرتعد ، وأسنانه تصطكُّ ، والماء يقطر منه ، فرآه الربان كويليو من بعيد يسير على سطح السفينة فصاح به :

— قف مكانك !

فصاح شين وهو لا يكاد ينطق من الرعشة :

— أنا شين .

فقام إليه الربان قائلا :

— وماذا أتى بك على هذه الحالة ؟ وأين القائد ؟

فقال شين وهو يرتعد برداً :

— فى السجن ! اذهب إليه فهو فى السجن .

فصاح كويليو :

— أسرع أيها الأحمق أولاً واجعل على جسمك ثيابًا .

فقال شين وهو لا يزال يرتعد :

ـــ أرسل إلى پاولو . أرسل إليه وأعلمه .

فصاح كويليو بأحد البحارة :

ـــ أسرع إلى السفينة سان رفائيل ، واسأل السيد پاولو أن يتكرم بالحضور إليّ حالاً ؛ وأنت أيها الأحمقُ أسرع فلُفّ جسمك بثياب جافّة .



٩



١٢

قضى القائد ڤاسكو يومه فى السجن مع أصحابه ، وكان الحرّاس يزجرونهم ، ويصيحون بهم ، كلما رأوْهم يتحركون . وكان سجنهم فى صحنٍ واسع ، فى بيت الوزير ، والحراس من حولهم ، بالسيوف والدروع والأقواس والسهام ، ولما أتى الليل تناوبوا على الحراسة ، خوف أن يهرُب أحد من السجناء .

ولما ذهب الرسول إلى پاولو دا جاما ، يسأله الذهاب إلى الربان كويليو ، أدرك أن فى لأمر سرًّا خطيراً ، وسارع إلى لقائه ، فقصَّ عليه الربان ما سمعه من شيْن .

وأطرق پاولو صامتًا حينًا ، فقال له كويليو :

– ليس لنا إلا أن نضرب المدينةَ بمدافعنا ، لنُنجي أصحابنا قَسراً .

فقال پاولو هادئًا :

– وما فائدةُ ذلك ، والقائدُ بين أيدى القوم أسيراً ؟ إنهم سوف يقتلونه ، هو ومن معه ، ولن يفيدنا تدميرُ المدينة شيئًا .

فقال كويليو :

– إذن فلنذهبْ إليهم جميعًا فإما خلصناهم ، وإما قتلنا مِنْ دونهم .

فأجاب پاولو :

– ما هذه خيراً من الأخرى ، فإننا قليلٌ وهم كثير ، ولن ينفعنا أن نقتُل منهم إذا هم قتلونا . والرأى عندى غيرُ هذا .

فقال كويليو فى حَنق :

– إذن فماذا ترى ؟

فأجاب پاولو :

– أرى أن نطلقَ الرهائن الذين عندنا . هؤلاء الأمراء الثلاثة الذين أرسلهم الزيمران إلينا .

فقال كويليو غاضبًا :

– ليس هذا برأى ، فما هو إلا العجز .

ثم خبطَ على المنضدة بيده الضخمة قائلا :

— كيف نطلق الرهائن ، وهم الضمانُ لنا ألا يقتل أحدٌ من أصحابنا ؟

فقال پاولو وهو يضع رأسه على يده :

— ليس لنا إلا أن نطلقَ الرهائن .

وكان وجهه أصفرَ ، ويداه نحيلتين تبرز العروق الزرقاء فيهما ، تحت جلدٍ من دونه عظمٌ .

فنظر إليه كوپليو متعجباً وقال له :

— ألك فى ذلك قصدٌ ؟

فقال پاولو :

— إن هؤلاء الأمراء من أهل الأمير ، وهم كما يلوح لى شبانٌ من أهل الشرف والمروءة . فإذا أطلقناهم فإنهم بغير شكٍّ يذهبون إلى الأمير ، ويسألونه أن يردَّ لنا الجميل ، بإطلاق قائدنا وأصحابه .

ولست أظن أن الزيمران قد أمر حقاً بسجن ڤاسكو وأصحابه ، بل إن ذلك كله من فعل الوزير وخُبْث كيده ، وليس لنا من حيلةٍ نبلغ بها الأمر إلى الأمير نفسه إلا بأن نطلق سراح الرهائن الثلاث .

وفى اليوم التالى أحضر پاولو الأمراء الثلاثة ، وأخبرهم بما حدث للقائد ، ومن معه من رجاله ، وقال لهم إنه لا يحسب ذلك كله إلا من فعل الوزير ، بغير علم من سيده ، ثم قال :

— لقد جاء أخى سفيراً من ملك البرتغال ، إلى صديقه الأمير ،

وقد وعده الأمير بأن يكونَ صديقـًا لمولانا . وما جئتم هنا إلا لتكونوا رهائن على سلامة أخى فهل ينبغى لكم أن تؤدوا الأمانة وتكونوا كرامـًا ؟

فقال الأمراء :

ـ هو ذلك .

فقال پاولو :

ـ ألم يكن حقـًا علىَّ أن أقطع رؤوسكم إذا لحق بأخى أذًى ؟

فأجابوا : هذا حق بغير شك .

فقال پاولو :

ـ ولكنا لا نريدُ بكم الأذى . وسأطلق سراحكم ، حتى تعودوا سالمين إلى دياركم . وأنا واثق من شرفكم ومروءتكم ،لا أطلب منكم إلا أن تحملوا إلى الأمير نبأ سجن أخى . فلا شكَّ عندى فى أنه لن يرضَى عن ذلك ، بل أنا واثقٌ من أنه لا علمَ له به .

لقد أتينا إلى هنا نطلب صداقتكم ، ونودُّ أن نعود من هنا ونحن وأنتم أصدقاء . وستأتى بعدنا أساطيلُ أخرى من البرتغال ، ولسوف تتذكر ما يحدث لنا اليوم على أيديكم .

ثم أعطى كلا منهم هدايا ، من ملابس وسلاح وذهب ، وجهـَّز لهم قاربـًا نقلهم إلى الشاطئ .

ولما أرادوا الذهابَ ، طلب أسودُ مزمبيق أن يذهبَ معهم قائلا :

— أريد أن أذهبَ لأخلصَ سيدى دنيس ، إنه حفظ حياتى ، وأريد أن أرد له الجميل .

فقال كويليو :

— إنها حيلة لكى يهرب منا .

فقال پاولو يخاطب شين :

— أتظن أنها حيلةٌ يا شين ؟

فأجاب الفتى :

— لا ، بل أظنه صادقًا . وأحب أن تسمحوا لى بالذهاب معه .

فقال پاولو :

— لا ينبغى لك أن تذهب معه ، ولن آذن لك بالذهاب . لقد نجوتَ مرةً بمعجزة ، والمعجزات لا تتكرَّر . ومن السهل على هذا الأسود أن يندسَّ بين الناس ، فلا يتنبَّه أحدٌ له ، ولكنك إذا سرتَ بين الناس عرفوا جميعًا أنك أجنبى عنهم فليذهب الأسود ، وسنرسل معه رسالة إلى القائد ، لعله يقدر على أن يوصلها إليه .

ونزل الأمراء ، ومعهم الأسود ، إلى القارب ؛ وأوصلهم شين وڤيلوزو إلى الشاطئ ، ولم ينسَ شين أن ينزل إلى البر ، ليأتىَ بثيابه التى خلعها ، ورماها هناك فى الليلة الماضية .

وكان ڤاسكو لا يزال فى سجنه يسيرُ فى قلقٍ ، وأصحابُه رقودٌ على

مساطبَ من الحجر ، أو على الأرض فوق فراشٍ من الحصير .

وأما دنيس فقد كان جالسًا إلى جانب نافذة ، عليها قضبان من الحديد والقلمُ فى يده . وجعل يتنفس من الهواء الحارّ الذى يهبّ من الجنوب الغربى ، لأنه كان ألطفَ من الهواء الراكد فى داخل السجن . وكان منزل الوزير — حيث سجن فاسكو وأصحابه — يطل من فوق صخرة عالية مشرفًا على المنازل والغابات والبرك المحيطة به . فاستطاع دنيس ، وهو عند النافذة ، أن ينظر إلى البحر من بعيد ، ويرى السفن التى فيه ، ورأى قاربًا يأتى من ناحية السفن البرتغالية ، ولكنه لم يَدْرِ ما يكون ذلك القارب ، ولا من جاء فيه .

وبعد قليل سمعتْ أصواتٌ فى خارج المكان ، الذى كان فيه القائد وأصحابه ؛ ثم فتح الباب ، ودخل جماعة يحملون طعامًا من السمك والأرز . ودخل معهم شخصٌ قصير سمين ، عليه ثوبٌ مخطط ، قد لفّ طرَفه على رأسه يكاد يُغطّى به وجهه ، وكان يحمل فى يديه طبقًا فيه تينٌ ، فسار حتى اقترب من دنيس وقال له :

— خذْ تينة تفكهْ بها أيها السيد . إنه تينٌ لذيذ لا يقلُّ فى حلاوته عن المربى .

ثم كشف وجهه فنظر إليه دنيس ، وفتح عينيه من الدهشة ، فقال الأسود ، هامسًا :

ــ لا تنطق بكلمة واحدة .

ثم صاح :

ــ قلت لك خذ تينة أو خذ اثنتين ، فإن معى كثيراً منه ، والوزير رجل كريم .

ثم دس فى يده ورقة ، فأخذها ، دنيس وجعلها تحت صحيفة كان قد رسم عليها صورة القائد ، وهو يسير فى السجن غاضباً مزمجراً .

وغطى الأسود وجهه ، وخرج بطبق التين من حيث أتى .

وقام البرتغاليون إلى قصاع الطعام فمسحوها مسحاً .

فلما فرغوا من الأكل ، وخرج الخدم يحملون الأوانى ، قام دنيس إلى القائد ، فناوله الورقة التى حملها الأسود إليه .

فنظر القائد فيها ، وقال فى دهشة :

ــ هذا خط پاولو . كيف وصلت إليك هذه الورقة ؟

فأخبره دنيس عن الأسود وما فعله ، ففض ڤاسكو ختم الرسالة ، وقرأ :

« أخى . إن الأمل عظيم ، فلا تجزع . سيذهب كويليو إلى مصب النهر فى شمال الميناء ، ومعه قوارب تنتظركم ، فإذا خرجت فاذهب إلى هناك . ولن أتحرك من هنا إلا إذا كنت معى » .

« پاولو »

فعبَس ڤاسكو وقال :

ـ لقد أساء پاولو إذ لم يُطعْ أمرى ويَرجع إلى البرتغال ، عندما سمع بسجنى فما حياتى ؟ وما حياتُنا جميعًا ، إذا قِيستْ بحمل بشرى بلوغنا الهند إلى مليكنا ؟ !

فقال دنيس :

ـ ولكنّ پاولو يحرص على حياتك .

فقال ڤاسكو :

ـ سأنتظر ثلاثة أيام بعد هذا ،فإذا لم يُفْرَجْ عنا ، فلا بُدّ أن أبعث هذا الأسود إلى أخى لآمرَه بالعودة سريعًا .

ثم نظر إلى دنيس قائلا :

ـ إنى آسفٌ إذ سبّبْت لك ، ولأصحابى هؤلاء ، مثل البلاء يا ولدى . ولو لم تكونوا معى لكان السجنُ أخفَّ وقعًا على نفسى ، ولكنتُ أقوى على حمل المكاره وحدى .

فأجاب دنيس :

ـ ليس هذا السجن بأسوأ مما كنت فيه فى بلادى . ألم أكنْ سجينًا حتى أخرجتنى أنا وأصحابى ؟

ثم أخذ عوداً كان أخوه قد تركه عندما أسرع خارجًا يومَ نجا بنفسه ، وشدّ أوتاره وجعل يضرب عليه أنغامًا وقال لڤاسكو :

— ماذا تُريد أن أغنى لك يا سيدى ؟

فقال ڤاسكو باسمًا :

— سمعتك مرة تغنى أغنيةً ظريفةً فأعدْها علىَّ ، تلك الأغنية التى تقول فيها : « بساطًا أخضر اللون » أو شيئًا مثل هذا .

فأخذ دنيس يغنى :

انظُر الأرضَ بساطا أخضر اللون نضيرا
وثغور الزّهْرِ فيها تملأ الجوَّ عبيرا

وانظر النحل إذا مال على قَطْر الرحيقِ
واسمع الطيرَ إذا غنى على الغصن الوريق

ثم وقف ونادى جوان قائلا :

— قم وغنِّ معى .

فقعد جوان على حصيرة ، وأخذ قيثارته وغنى معه .

فقال ڤاسكو لأصحابه :

— قوموا أيها الفتيان فغنوا جميعًا . بل ارقصوا حتى لا يظنَّ هؤلاء الذين سجنونا أن الهمَّ قهرنا ؛ فقام الجميع وتنحنحوا ، وجعلوا يُغنون ويرقصون ، وبقى ڤاسكو إلى جانب النافذة ينظر إلى البحر البعيد ، والبحارة يخرجون من أغنيةٍ إلى أخرى .

فقالوا :

نحنُ فى الهند هنا رهنٌ بسجن الزيمران
حولنا الحراسُ يمشُون بسيف أو سنان
فإذا عُدنا إلى الأوطان فُزْنا بالأمانى
بخواتيم من الجوهرِ فى كل بنان
وبهار وحريرٍ وعطور فى القنانى
سوف يلقانا كرامُ الناس فى كل مكان
ويسيرُ الموكبُ الحفلُ بنا فى مهرجان
عن يمين وشمال باسمات من حسان
وسنختار كما شئنا من البيض الغوانى
من بنات السادة الأشراف ربَّات الصِّيان
ولهن المهر غال قرفة أوحب هان
وهدايا من نضار وعقود من جمان
ونغنى ليلة العرس بهاتيك الأغانى

وفى وسط هذه الضجة العالية علا صياح ، ونادى قوم من الخارج :
« وسعوا الطريق . وسعوا الطريق . وسعوا لرسل الزيمران ! »

ثم دخل الأمراء الثلاثة الذين كانوا من قبل رهائن عند ڤاسكو ، وكانت أساورهم ودروعهم وسيوفهم تبرق بذهبها فى نور الشمس .

ولما دخلوا إلى السجن قال أكبرهم للترجمان الذى معهم :

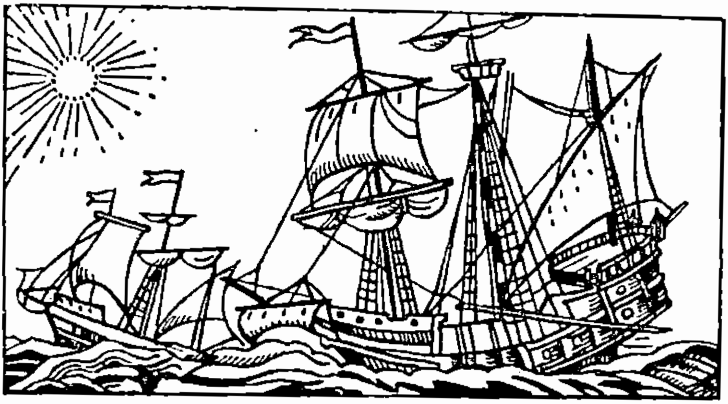
– قلْ للقائد إنه حرٌّ يذهب حيث يشاء ، وقل له إن الزيمران لم يكن له علمٌ بما حدث ، وقد غضب على الوزير لما أوقعه بكم من الأذى . وأرسل معنا إليكم هديّةً دلالة على مودته .

ثم دخل جمعٌ من الخدم يحملون رزمًا من الحرير والذهب واللؤلؤ ، وتفرّق الحرّاس الذين كانوا حول السجن ، فاختفوْا كأنهم غابوا فى الأرض . وخرج ڤاسكو وأصحابه ، بعد أن شكروا الأمراء وأثنوا على مروءتهم .

فقال الأمير الأكبر :

– ولكم أن تذهبوا ببضاعتكم إلى الأسواق وأن تبيعوا وتشتروا ، وتقيموا فى بلادنا ما طاب لكم هنا المقام .





١٣

فارقت السفن شاطئ الهند ، بعد جولة ٍ صغيرة إلى بعض سواحلها . وقضت فى رحلتها ثلاثةَ أشهر ، قبل الوصول إلى ساحل أفريقية ، فى أوائل ١٤٩٩ ، ثم سارت على ذلك الساحل حتى دارت حول رأس العواصف ، وقد أصبح حقًّا رأسَ الرجاءِ الصالح . فقد بلغ البرتغالُ أملهم فى الوصول إلى الهند .

ثم وصلت السفن بعدَ أشهر إلى بحارِ غينيا ، فى غرب أفريقية ، وكان الهواء حارًّا خانقاً ، لا يكاد يتحرّك . وكان الماء ساكنًا لا تظهر عليه موجة . وكان سطحُه ملبداً بالعشب ، تسير فيه السفن كأنها

تقطع أرضًا يابسةً ، فيتعلق بها ويلزَق بجوانبها وكانت السفن تتحرك بطيئةً ، والسماء من فوقها سوداء ملبَّدة بالغيوم ، لا يسكن رَعدُها ، ولا ينقطع برقُها ولا مطرها .

وبعث ڤاسكو قاربًا إلى السفينة بريو ليدعوَ الرَّبان كويليو أن يذهب إليه فى سفينته سان جبريل .

فقال نقولا كويليو :

— وما الذى يدعونى القائد من أجله ؟ هل تفشّى المرض فى البحارة مرَّة أخرى ؟

فأجاب البحار :

— لا . إن البحارةَ بخير ، ولكنه الربان پاولو دا جاما . . .

فصاح كويليو :

— وماذا به ؟

فأجاب البحّار :

— إنه مريض .

فقال كويليو : ألا تعرف مرضه ؟

فأجاب البحار :

— لست طبيبًا يا سيدى ، ولكنه راقدٌ على فراشه يبتسم لنا ،

ويمزَح مع أخيه ويذكرُه بما كانا يفعلان فى لعبهما إذ هما صبيان صغيران . وقد سألنى أن تحضرَ معك جوان ودنيس ، ومعهما شين . فإن السيد پاولو يريد أن يراهم جميعًا .

فذهب كويليو وأصحابه إلى سفينة القائد ڤاسكو .

وكان پاولو راقداً على سرير تغطيه ملاءةُ كتّانٍ بيضاء . وكان وجهه يكاد يفوق الملاءة بياضًا وقد تغير شعره الأصفر ، فصار فى لون الفضة . وكان حول عينيه حلقةٌ سوداءُ قاتمةٌ ، ولكن نظراته كانت لا تزال ممتلئة مرَحًا وبشْراً . ولما وقعت عين پاولو على نقولا كويليو قال له :

— ما أشبهك يا صاحبي فى هذه الثياب بشيخٍ من شيوخ لصوص البحر !

وكان كويليو فى ثياب شرقية فَضفاضةٍ .

فقال كويليو :

— إن هذه الثيابَ أرفق بالإنسان فى مثل هذا الحرّ يا سيدى .

ودخل شين وجوان كويليو ، وكان كلٌّ منهما قد حمل على كتفه ببغاء جاء بها من أرض أفريقية ، ويلبسان ثيابًا شرقية زاهية اللون . فنظر إليهما پاولو ، وجعل يتأمل وجهيهما ، وقد تغيرا وظهرت عليهما ملامح الرجولة ، وعلتهما سمرة مشربة بحمرة ، ثم قال لمن حوله :



ـ أتذكرون كم مضى من الزمن منذ فارقنا بلادنا ؟ أهما سنتان أم دونَ ذلك ؟ لشدّ ما تغير هذان الفتيان فى هذه المدة على قصرها ! لقد تغيرنا جميعاً إلا ڤاسكو ، فإنه لا يزال كما كان .

فتبسَّم ڤاسكو وهو صامت ، وكان جالساً إلى جانب أخيه يروِّحُ على وجهه بمِرْوَحةٍ من ريش الطاووس . وسمع عند ذلك صوتُ بحارٍ يُصفِّر نغمةً فى خارج الغرفة ، وكانت من الأغانى التى تعوَّد شين أن يوقعها على عوده ، فقال پاولو :

ـ ألا تغنى لى هذه الأغنية يا شين ؟

فأخذ شين عودَه ، ورفع جوان ڤيثارته وأخذا يُغنيان :

نحنُ فى الهندِ كما نحن ببيت الزيمران
فإذا عُدنا إلى الأوطان فزنا بالأمانى

وكان پاولو دا جاما يسمع الأغنية باسماً ، وعلى وجهه علامات السلام والارتياح .

ولما فرغ الفتيان من الغناء ، أخرج پاولو من تحت وسادته كيساً مطرَّزاً بالذهب ، وأفرغ ما فيه بكفه ، فإذا هى لآلئ لامعةٌ ، وجعل ينقلها من كفّ إلى الأخرى . ثم قال :

ـ مدّ إلىّ يدك يا شين ، وأنت يا جوان . مدّا إلىّ يديْكما أيها القرصان .

ثم أفرغ بعض اللآلئ في كفيهما . ومدّ يده بما بقي فيها إلى نقولا كويليو وإلى دنيس .

فحاولوا أن يشكروه ، ولكنه قاطعهم قائلا :

— إنني أتشبّه اليوم بالملوك . أو لعلي أتشبه بالزيمران. فأنا هنا راقدٌ ، وهذا العبدُ يروّح لي بمروحةٍ من ريش الطاووس — وأشار إلى ڤاسكو — ثم ها أنتم هؤلاء تغنونّ لي ، وأنا أعطيكم العطايا من الجواهر السنية ، جائزة لكم على خدمتكم . ولو غضبتُ على أحدٍ منكم لأمرتُ بالسيف والنّطع وقطعت رقبته . ولكني أحمد الله على أنيّ لم أغضب على أحد .

وسكت لحظة ثم قال :

— لقد قمنا أيها الرفاق برحلة لم يقُم بها أحدٌ قبلنا ، وسوفَ تتحدث الأجيال المقبلة جيلا بعد جيل بحديثها . ولقد كان لي فخرُ المشاركة فيها ، وإن كان نصيبي منها أقل الأنصبة جميعًا . وها أنذا أعود إلى داري ومقرّي .

فقال ڤاسكو :

— أراك تتكلم كثيراً يا أخي ، والكلامُ يجهدك. وأرى أنه خير لك أن يخرج هؤلاء جميعًا وأن تهدأ في مضجعك .

فقال پاولو :

ـ انتظر قليلا يا أخى . ألا تُغنى لىَ أغنيةً أخرى يا دنيس ؟ غنّ لى أغنيتى .

فأخذ دنيس يغنى له أغنيةَ السجن ، عندما كانوا فى بيت الزيمران مرة أخرى .

وقال پاولو :

ـ ألا تذكر يا ڤاسكو عندما كنا صغاراً ، فخرجنا فى قارب للصيد ؟ ألا تذكر عندما عدنا فى المساء . . . ؟

فقال ڤاسكو : أذكر ذلك يا أخى ، وأرجوك أن تترفّق بنفسك .

فقال پاولو وهو يغمض عينيه :

ـ لقد كانت أغنيةً حلوة . أشكركم . وإلى اللقاء !

ولم يفتح عينيه بعد ذلك أبداً .





١٤

وصلت السفينتان بريو وسان رفائيل إلى لشبونة ، وبعد عدّة أسابيعَ وصلت السفينة الثالثة سان جبريل .

وأقبل الملك من مَصيفه فى « سنترا » ليتسقبل الأسطولَ الفائزَ ، الذى لم يسبقه أحد إلى مثل رحلته . وكان يومًا مشهوداً . ومنذ ذلك الحين اتخذ الملكُ منويل لنفسه لقبًا جديداً ، وأصبح الناس يسمونه : الملك منويل السعيدَ ، كما سمّاه المنجم زكوت .

ودعا الملك القائد ڤاسكو إلى قصره تكريمًا وتشريفًا، ولكن القائد

عرّج على دير « بليم » ليُصلى على روح أخيه أولا ، قبل أن يذهب إلى القصر . وسار في موكب عظيم ومن ورائه من بقى من رجاله .

ووقف الناس على جانبي الطريق يلوحون لهم بالأيدى ، ويهتفون لهم بالدعاء ، وجاء فى آخر الموكب دلنكو والڤاريز، وهما مُقيدان فى السلاسل ، وجاء من بعدهما أصحابهما من البحارة الذين شاركوا فى المؤامرة ، وهم فى مثل قيودهما . وكان كل من فى الموكب من أصحاب ڤاسكو فى أجمل زينة من ملابس الحرير والسلاح المحلى . ودخل القائد القصرَ ، ثم أمر المجرمين من أصحابه أن يتبعوه حتى بلغ مكان العرش ، فركع عند قدمى الملك قائلا :

ـ الآن يا مولاى قرّتْ عينى وزالت متاعبى . وقد أتيت بهؤلاء الذين أجرموا من أصحابى مقيدين فى الأغلال ، لأبين لمولاى أننى لاقيْت العواصف والأخطار ، فى البرّ والبحر ، وعانيتُ الأمراض والأهوال وقاسيت الكروب من كل لون ، حتى من خيانة أصحابى ؛ فقد ثار علىّ هؤلاء فى وسط المحيط ، وكادوا يفسدون علينا أمرنا ، لولا أن تداركنا الله فأبطل مكرهم وأحبط كيدهم . ولكنهم يا مولاى تابوا من بعد ذلك ، وكانوا خير الأعوان . فأرجو مولاى أن يعفو عنهم ، فى بركةِ هذا اليوم السعيدِ .

فقال الملك :

ـ هم رجالك ، فافعلْ بهم ما تشاءُ . لك أن تسجنهم ، ولك أن



تأمرَ بقتلهم ، ولك — إن شئتَ — أن تعفوَ عن جريمتهم .

فالتفت ڤاسكو إليهم وقال :

— لقد أتيتُ بكم أمام مولاى الملك فى الأغلال ، برًّا بعهدى الذى قطعتُه على نفسى ، ولكنْ لا تَثريب عليكم اليومَ ، غفرتُ لكم ذنبكم . فاذهبوا كرامًا ، وأسألُ الله لكم توفيقًا . عُودوا إلى أهلكم ، واهنأوا معهم بالحياة.

فجثا البحارة على رُكبهم خاشعين وقالوا :

— جزاك الله عنا خيرَ الجزاء . لقد جازيتنا بما أنت أهلٌ له من الإحسان .

ثم ذهبوا لتفكَّ عنهم الأغلال .

وقدم القائد صاحبه كويليو إلى الملك قائلا :

— وأما هذا يا مولاى فهو أجدر الناس بعطفك ، وتشريفك .

فتبسَّم الملك قائلا :

— سوف أحقق ما تريد يا دون ڤاسكو دا جاما . وأما أنت فقد أمرت بلقب « دون » ولأولادك من بعدك ، إلى أبدِ الدهر .

فقبَّل ڤاسكو يد الملك ، وكذلك فعل كويليو ، وأخذا يفتحان الصناديق التى حملت إلى حضرة الملك واحداً بعد واحد ، ويعرضان ما فيها من حلى وتُحف . وبقى الدون ڤاسكو فى حضرة الملك إلى المساء ، يقصُّ عليه من أنباء الرحلة ومخاطرها ، وما تحقَّق فيها من نجاح .

ولم ينس أهل لشبونة فى تلك الأيام اسمَ زكوت ، فقد تحققتْ نبوءته ، وأقبل الناس عليه من أطراف البلاد ، ليسألوه أن يستطلع لهم أنباء النجوم . وذهب عنه وعن ابنته راشيل ، وعن أهله جميعًا ، ما كان يحيط بهم من الخوف .

واستقر المقام لصاحبيه جوان وشين ، وفتح الله عليهما فى التجارة ، وصارا من الأثرياء ، وتزوّج جوان بابنة زكوت . وأما شين فتزوج لويزا كويليو .

وتزوج القائد من ابنة أحد أصدقائه الأمراء ، وأقام فى مدينة « إيڤورا » ، وزيّن جدران بيته ، من داخلها وخارجها ، بصور من حيوان الهند وأهلها ، وبقى اسم الشارع الذى فيه ذلك البيت إلى اليوم « شارع البيوت المصورة » .

وذهب ڤاسكو بعد ذلك فى رحلات أخرى ، وكانت رحلته الثالثة إلى مستعمرةِ « غوا » فى شمال « ڤالقوط » ، وصار هو الحاكم عليها من قِبَلِ ملك البرتغال .

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ١٠٨٨٢
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 4311 - 6

١ / ٩١ / ٣٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)